الفرزدق

أئمة الأدب ٥

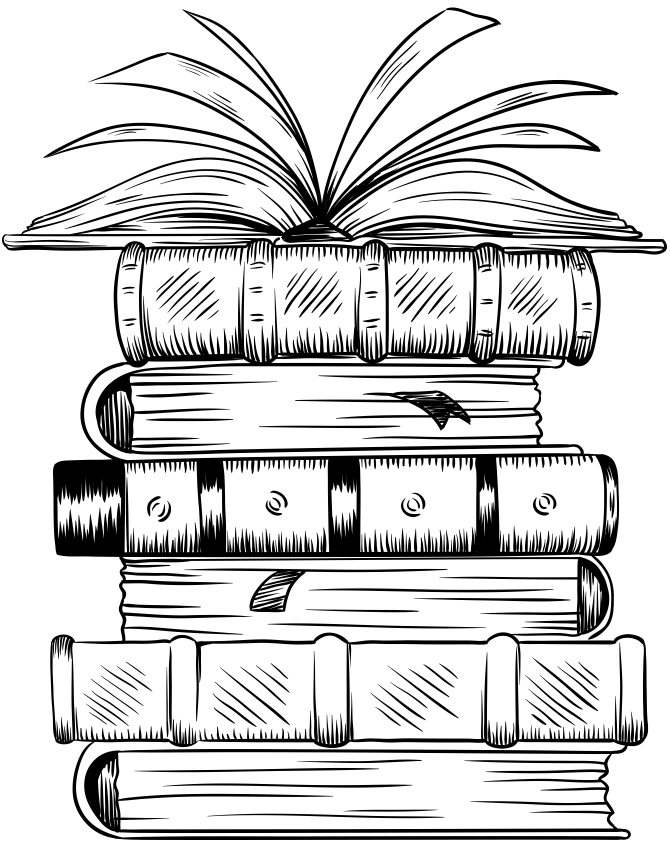

خليل مردم

الفرزدق

أئمة الأدب ٥

تأليف
خليل مردم

هنـــداوي

الفرزدق

خليل مردم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٢ ٣٧٣١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الفرزدق	٧
صفته وأخلاقه	١٧
شعره	٣١
فخره	٥٥
هجاؤه	٦١
مدحه	٦٥
وصفه	٧١
غزله	٧٥
رثاؤه	٨١
الأدب والحكمة	٨٣

الفرزدق

بنو تميم من العرب المُضريَّة، كانت منازلهم بنجدٍ إلى اليمامة إلى البصرة إلى الغري من أرض الكوفة، ومن أشراف تميم بنو دارم، ومن دارم بنو مجاشع عشيرة الفرزدق، نزلوا البصرة وباديتها عند اختطاطها في فتح العراق.

فهو أبو فِراس همَّام بن غالب بن صعصعة، يَنتهي نسبه إلى مجاشع بن دارم. والفرزدق لقب غلب عليه، ومعناه: القطعة من العجين؛ لأنه كان جهم الوجه، أُصيب بالجدري في صغره. وآباؤه من أجواد العرب وكِرامهم وذوي المناقب والمآثر الحميدة،[1] كان أبوه غالب لا يُبارى كرمًا، وفَد على النبي عليه السلام، وعُمِّرَ حتى لحق عليًّا بالبصرة، ومات في أول خلافة معاوية، وقبره بكاظمة. وكان جدُّه صعصعة يشتري الموءودات في الجاهلية كل واحدة بناقتين وجمل، فجاء الإسلام وقد اشترى نحو مائة موءودة، وبالَغَ بعضُ الرواة فجعلهنَّ أربعمائة، فقيل له: مُحيي الموءودات، وهو أول من أسلم من أجداد الفرزدق، قدم على النبي فأسلم، وكان يقول الشعر، وفيه يقول الفرزدق:

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيدَ فلم يُوءَد

وأم غالب ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس، وأم الفرزدق لينة بنت قرظة الضبِّية. وكان للفرزدق أخ اسمه هميم ولقبه الأخطل كان أسنَّ منه، يقول الشعر ولكن ليست له نباهة، وتُوفي قبله، وكان له أخت يُقال لها جعثن.

---

[1] قال المرزباني في معجم الشعراء: «وبيت الفرزدق من أشرف بيوت بني تميم، ومِن شرفِه أنه ليس بينه وبين معد بن عدنان أب مجهول.»

وُلد الفرزدق حوالي سنة تسع عشرة للهجرة في خلافة عمر، ونشأ على ما يظهر نشأةً بدوية، لم يتعلم القراءة ولا الكتابة وظلَّ أُميًّا، ولكن أباه روَّاه الشعر وكلام العرب وبدأ يقول الشعر وهو صغير. رُوي عنه أنه قال: «كنتُ أجيد الهجاء في أيام عثمان.» وقال: «كنتُ أُهاجي شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان، فكان قومي يَخشون معرة لساني منذ يومئذ.» وخلافة عثمان من سنة ٢٣–٣٥. وقال ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء: كان الفرزدق قد رعى غنمًا لأهله في صغره، فذهب الذئب منها بكَبشٍ فقال:

تلوم على أن خالط الذئب ضأنها فألوى بكبشٍ وهو في الرعي راتعُ

منها:

وما كنتُ مضياعًا ولكنَّ همتي سوى الرعي مفطومًا وإذ أنا يافعُ

فكان ذلك أول ما عُلم به من شعره.[٢]

وتَنقطع عنا أخبار الفرزدق طيلة خلافة عثمان، فإذا كانت خلافة عليٍّ ذكر لنا الرواة أن غالبًا — أبا الفرزدق — دخل على عليٍّ بالبصرة ومعه ابنه الفرزدق بعد عام الجمل، فقال: إنَّ ابني هذا من شُعراء مضر فاسمع منه. فقال علي: علِّمه القرآن فهو خيرٌ له. فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيَّد نفسَه في وقتٍ وآلى أن لا يَحلَّ قيده حتى يحفظ القرآن.

وتتسلسل أخبار الفرزدق وتطَّرد منذ تم الأمر لمعاوية، ذكر الطبري وصاحب الأغاني أن الحُتات بن يزيد أحد أعمام الفرزدق وفدَ مع جماعة على معاوية، فخرجت جوائزهم

[٢] ورد في ديوان الفرزدق (طبعة بوشر، ص٢٢٨) ما نصه: وقال الفرزدق وهو أول ما قال من الشعر:

شاهد إذا ما كنت ذا محمية بـدارمـيٍّ أمـه ضـبِّـيـة
صمحمح مثل أبي مكية

وقال الفرزدق في أول ما قاله:

يا حبذا نَضحك بالمشافر كأنه تَهتان يومٍ ماطر

فانصرفوا، ومرض الحتات فأقام عند معاوية حتى مات، فأمر معاوية بماله فأُدخل بيت المال، فقال الفرزدق قصيدة منها:

أبوكَ وعمي يا معاوي أورثا تراثًا فيَحتاز التراثَ أقاربُه
فما بال ميراث الحُتات أخذتَه وميراثُ حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهليةٍ علمت مَن المرءُ القليلُ حلائبه

فأغضبَت هذه القصيدة زياد بن أبيه أمير العراق من قِبَل معاوية. وأُضيف إلى ذلك أن الفرزدق هجا بني نهشل وبني فقيم، فشكَوه إلى زياد فازداد غضبًا عليه وطلَبَه فهرب منه، وكان ذلك سنة خمسين. وكان زياد يَمكُث في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة ستة أشهر، فإذا كان بالبصرة نزل الفرزدق الكوفة، وإذا كان بالكوفة نزل الفرزدق البصرة، وقد يَهيم في البادية، فبلغ ذلك زيادًا فشدَّدَ في طلبه، فخرج إلى الحجاز مع دليل، فلما كان في الطريق تبعه أسد، فقال في ذلك:

ما كنتُ أحسبُني جبانًا بعدما لاقيتُ ليلة جانب الأنهارِ
ليثًا كأنَّ على يدَيه رحالةٍ شثن البراثِنِ مؤجد الأظفارِ
لمَّا سمعتُ له زمازم أجهشت نفسي إليَّ وقلتُ أين فراري؟
وربطتُ جروتها وقلتُ لها اصبري وشددتُ في ضيق المقام إزاري
فلأنت أهوَن من زيادٍ جانبًا اذهب إليك محرم الأسفار

قال لبطة بن الفرزدق: فأنشدت زيادًا هذه الأبيات، فكأنه رقَّ له وقال: لو أتاني لأمَّنته وأعطيتُه. فبلغ ذلك الفرزدق فقال قصيدة، منها:

دعاني زيادٌ للعطاء ولم أكُن لآتيه ما ساق ذو حسب وفرا

وقَدِمَ الفرزدق المدينة وعاذ بأميرها سعيد بن العاص، ومدحه بقصيدة يقول فيها:

نرى الشمَّ الجحاجح من قريشٍ إذا ما الأمر في الحدثان عالا
بني عم النبي ورهط عمرو وعثمان الذين علوا فِعالا
قيامًا ينظرون إلى سعيدٍ كأنهمُ يرَون به هِلالًا

فأجاره سعيد، وفي هربه من زياد يقول:

ألا مـن مُـبـلـغٍ عـنـي زيـادًا ... مُـغـلـغـلـةً يـخـبُّ بـهـا الـبـريـدُ
بـأنـي قـد فـررتُ إلـى سـعـيـدٍ ... ولا يُسطاع ما يَحمي سعيدُ
فـررتُ إلـيـه مِـن لـيـثٍ هِـزَبْـرٍ ... تَـعـادى عـن فـريـسـتـه الأسـودُ
فإن شئتَ انتسبتُ إلى النصارى ... وإن شئتَ انتسبتُ إلى اليهود
وإن شئت انتسبتُ إلى فُقيم ... ونـاسـبَـنـي ونـاسـبـتُ الـقـرودُ
وأبـغـضـهـم إلـيَّ بـنـو فُـقـيـمٍ ... ولـكـن سـوف آتـي مـا تُـريـدُ

ويقول أيضًا:

أتـانـي وعـيـدٌ مـن زيـادَ فـلـم أَنَـمْ ... وسيلُ اللِّوى دوني فهَضبُ التَّهائمِ
فـبـتُّ كـأنـي مـشـعـر خـيـبـريـة ... سرَت في عظامي أو سمام الأراقم
زياد بن حرب لن أظنَّكَ تاركي ... وذا الضغن قد جشَّمتُه غير ظالم

ولما أنشد الفرزدق سعيدًا قصيدته كان عنده مروان بن الحكم، فلما خرج الفرزدق خرج مروان في إثره، فقال: لم ترضَ أن نكون قعودًا حتى جعلتَنا قيامًا في قولك: «قيامًا ينظرون إلى سعيد ...» فقال له: يا أبا عبد الملك، إنك مِن بينهم صافن. فحقَد عليه مروان ذلك.

ثم عُزل سعيد ووُلي مروان مكانه، وكان الفرزدق وهو في المدينة يَشرب ويدخل إلى القيان، وفي ذلك يقول:

إذا شئتُ غناني من العاج قاصف ... على مِعصَمٍ ريَّان لم يتخدَّدِ
لَبيضاء مِن أهل المدينة لم تعِش ... ببؤس ولم تتبَعْ حمولة مجحدِ
وقامَت تُخشِّيني زيادًا وأجفلت ... حوالي في بُردٍ يَمانٍ ومجسَدِ
فقلتُ دعيني من زيادٍ فإنني ... أرى الموتَ وقَّافًا على كل مرصدِ

فبلغ شعره مروان، فدعاه وتوعَّدَه وأمره بالخروج من المدينة وأجَّله ثلاثًا، فقال:

دعانا ثم أجَّلَنا ثلاثًا ... كما وُعِدَت لمَهلَكِها ثمودُ

وكتب له مروان إلى بعض عُماله ما بين مكة والمدينة بمائتي دينار، فارتاب بكتاب مروان، فجاء إليه وقال:

مروان إنَّ مطيتي مَعقولة ترجو الحباء وربُّها لم يَيئَسِ
أتيتني بصحيفةٍ مختومة يُخشى عليَّ بها حباء النقرسِ
ألقِ الصحيفة يا فرزدق لا تكن نكدًا كَمِثلِ صحيفة المُتلمِّسِ

ورمى بها إلى مروان، فضحك وقال: ويحك، إنك أميٌّ لا تقرأ، فاذهب بها إلى من يقرؤها ثم ردَّها حتى أختمها.[٣] قال الفرزدق: فخرجت أريد اليمن، حتى إذا صرتُ بأعلى ذي قسي — وهو طريق اليمن من البصرة — فإذا رجل مُقبِل، فقلت: مِن أين وضح الراكب؟ قال: مِن البَصرة. قلت: فما الخبر وراءك؟ قال: أتانا أنَّ زيادًا مات بالكوفة. قال: فنزلتُ عن راحلتي فسجَدت، وقلتُ لو رجعت فمدحتُ عُبَيد الله بن زياد وهجوتُ مروان بن الحكم، فقلت:

وقفتُ بأعلى ذي قسيٍّ مطيَّتي أمثل في مروان وابن زيادِ
فقلتُ عبيد الله خيرهما لنا وأدناهما من رأفة وسدادِ

ولما رثى المسكين الدارمي زيادًا بقوله:

رأيتُ زيادةَ الإسلام ولَّتْ جهارًا حين ودَّعَنا زيادُ

قال الفرزدق لمسكين ولم يكن هَجا زيادًا حتى مات:

أمسكينُ أبكى الله عينك إنما جرى في ضلالٍ دمعها فتحدَّرا
بكيتَ امرأً مِن آل ميسان كافرًا ككسرى على عدَّانه أو كقَيصرا
أقول له لما أتانيَ نَعيُه به لا بظبْي بالصريمة أعفرا

[٣] ولكن ورد في ديوان الفرزدق (طبعة بوشر، ص١٨١، آخر سطر) ما يدل على أن الفرزدق كان يقرأ: «... وجعل الفرزدق يقرأ الكتب ... إلخ.»

وفي موت زياد يقول:

أبلغ زيادًا إذا لاقيتَ مصرعه أن الحمامة قد طارَت من الحرمِ
طارت فما زال يَنميها قوادمها حتى استغاثَت إلى الأنهار والأجم

وكانت إقامة الفرزدق بالحجاز ثلاث سنوات، ولم يعُد إلى البصرة إلا بعد موت زياد سنة ثلاث وخمسين.

ومن الحوادث الهامة في حياة الفرزدق المهاجاة التي وقعت بينه وبين جرير؛ فقد دامت نحوًا من خمسين سنة كانا فيها فرسَي رهان، ويَغلِب على الظن أنها حدثَت بينهما في أواخر أيام معاوية؛ لأن يزيد بن معاوية تمثَّل أمام أبيه بقول جرير:

فأنتَ أبي ما لم تكن ليَ حاجة فإن عرضَت أيقنتُ أنْ لا أَبا ليا

وهو بيت من قصيدة هجا بها الفرزدق، وسبب المهاجاة هو أن البُعيث المجاشعي الشاعر هجاه جرير ونال من نساء مجاشع، وكان الفرزدق إذ ذاك بالبصرة قد عاهد الله على حفظ القرآن، فقيَّد نفسه وحلف أن لا يُطلق قيده حتى يحفظ القرآن، وبلغ نساء بني مجاشع فُحش جريرٍ بهن، فأتَين الفرزدق وهو مُقيد فقُلن له: قبَّح الله قَيدَك، فقد هتَكَ جرير عورات نسائك، فلُجِّيت شاعر قوم. فأحفَظنه ففضَّ قيده ثم قال يهجو البُعيث ويُعرِّض بجرير من غير أن يصرح باسمه:

ألا استهزأَتْ مني هُنيدة أن رأت أسيرًا يُداني خَطوُه حِلَقَ الحَجلِ
ولو علمَتْ أنَّ الوثاقَ أشدُّه إلى النار قالت لي مقالة ذي عَقلِ
لعَمري لئن قيَّدتُ نفسي لطالَما سعيتُ وأوضعتُ المطية للجهلِ
ثلاثين عامًا ما أرى مِن عمائةٍ إذا برَقتْ إلا شَددتُ لها رحلي
أتتْني أحاديثُ البعيث ودونه زرود فشامات الشَّقيف إلى الرملِ
فقلتُ أظَنَّ ابنُ الخبيثة أنني شُغلتُ عن الرامي الكنانةَ بالنبلِ
فإن يكُ قيدي كانَ نذرًا نذرته فما بي عن أحسابِ قوميَ مِن شغلِ
أنا الضامِن الراعي عليهم وإنما يُدافِع عن أحسابهم أنا أو مِثلي

إلى آخر القصيدة، فنقَضَها جرير بقصيدة هجا بها البعيث والفرزدق مُصرِّحًا باسمه، أولها:

عُوجي علينا واربَعي ربة البَغلِ ولا تَقتُليني لا يحلُّ لكم قتلي

فاضطرَّ حينئذٍ الفرزدق أن يبرز لخصمه، فأجابه بقصيدة كانت أول قصيدة هجا بها جريرًا صراحةً، وقرن معه البعيث، ومطلعها:

ألم ترَ أني يوم جوِّ سويقة بكيتُ فنادَتْني هُنيدة ما ليا؟

واستمرَّت هذه المهاجاة بينهما منذ ذلك الحين إلى أن مات الفرزدق.

ومن الحوادث التي كان لها أثر في حياة الفرزدق وشعره زواجُه بابنة عمه النوار ابنة أعين بن ضبيعة؛ وخبر ذلك أنَّ النوار خطبها رجل من بني عبد الله بن دارم فرضيَته، وكان الفرزدق وليَّها، فأرسلت إليه أن زوِّجني من هذا الرجل، فقال: لا أفعل أو تُشهدينني أنكِ رضيتِ بمن زوجتُكِ، ففعلَت. فلما توثَّق منها قال: أرسلي إلى القوم فليأتوا. فجاءت بنو عبد الله بن دارم، فشحنوا مسجد بني مجاشع، وجاء الفرزدق فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد علمتم أن النوار قد ولَّتني أمرها، وأُشهدكم أني قد زوَّجتها نَفسي على مائة ناقة حمراء سُود الحدقة. فنفَرَتْ من ذلك وشخصَت إلى ابن الزبير بمكة، وهو يومئذٍ أمير الحجاز والعراق يُدعى له بالخلافة، واستجارت بخولة بنت منظور بن زبان، زوج ابن الزبير، ولحقها الفرزدق ونزَل على بني عبد الله بن الزبير، فاستنشدوه واستحدثوه، ثم شفعوا له إلى أبيهم، فجعل يُشفِّعهم في الظاهر، حتى إذا صار إلى خولة قلبتْه عن رأيه، فقال الفرزدق في ذلك:

أمَّا بنوه فلم تُقبَل شفاعتُهم وشُفِّعتْ بنتُ منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذي يَأتيكَ مؤتزرًا مثل الشفيع الذي يأتيك عُريانًا

وسفر بينهما رجال من بني تميم كانوا بمكة، فاصطلحا على أن يَرجعا إلى البصرة ويصيرا على حكم بني تميم. فلما بلغا البصرة رجعت إليه النوار بحكم عشيرتها، ومكثت عنده زمنًا على كره، ترضى عنه حينًا وتُخاصمه حينًا، وكانت امرأة صالحة، وقد تزوَّج عليها ليَغيظها، فلم تزل تُرقِّقه وتَستعطِفُه حتى أجابها إلى طلاقها، وأخَذَ عليها أن لا

تُفارقه ولا تبرح من منزله ولا تتزوج رجلًا بعده، ولا تمنعه من مالها ما كانت تبذله له. وكان ندمُه شديدًا بعد أن طلقها، وفي ذلك يقول:

ندمتُ ندامة الكسعيِّ لمَّا غدتْ مني مُطلَّقة نوارُ
ولو أني ملكتُ يدي وقلبي لكان عليَّ للقدر الخيارُ
وكانت جنَّتي فخرجتُ منها كآدم حين أخرجه الضرارُ
وكنتُ كفاقئ عينيه عمدًا فأصبحَ ما يُضيء له النهارُ

وماتت النوار في حياته، وله فيها منذ تزوجها إلى أن ماتت أشعار كثيرة.

والفرزدق على شُهرته وكرم بيته لم يكن له كبير حظٍّ عند أكثر وُلاة العراق لتقلُّبه وخُبث لسانه؛ فقد مرَّ أنه هرب من زياد بن أبيه إلى الحجاز، ولم يَعُد إلى البصرة إلا بعد موت زياد، ولم يَضطهده عبيد الله بن زياد عامل العراق، فلما مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين وضَعُف ابنه عن القيام بالأمر من بعده، خلَع أهل البصرة ابن زياد واختاروا واليًا عليهم عبد الله بن الحرث الملقَّب بببَّة، وكتبوا إلى ابنِ الزبير بالبيعة، وفي ذلك يقول الفرزدق:

وبايعتُ أقوامًا وفيتُ بعهدهم وبَبَّة قد بايعتُه غير نادمِ

فلما استعاد عبد الملك العراق وولَّى أخاه بشرًا الكوفة والبصرة سنة أربع وسبعين مدَحَه الفرزدق،[٤] فقرَّبه بشر وكان يؤثره، ولكن أيامه لم تَطُل، بل مات بالبصرة سنة خمس وسبعين، ورثاه الفرزدق قائمًا على قبره. فلما وليَ الحَجَّاج سنة خمس وسبعين خافه الفرزدق كثيرًا، وتقرَّب إليه بالمدح وغلا في تقريظه فلم يُصَب بسوء، أما آل المهلَّب فقد هجاهم ومدَحهم، ولما وليَ عمر بن هبيرة العراق من قِبَل يزيد بن عبد الملك قال الفرزدق:

أمير المؤمنين وأنتَ عفٌّ كريم لستَ بالطبع الحريص
أَأولَيتَ العراق ورافدَيه فزاريًّا أحذَّ يدِ القميص
ولم يكُ قبلها راعي مخاض ليأمنه على وركَي قلوص
تفنَّنَ بالعراق أبو المثنى وعلَّم أهله أكلَ الخبيص

[٤] انظر: ابن عساكر، ج٣، ص٢٤٩.

وهجاه بغير ذلك، فحبسه عمر ثم أطلَقه، فلما عُزل وحُبس مدحه الفرزدق، فقال: ما رأيت أكرم منه، هجاني أميرًا ومدحني أسيرًا.

ثم ولي خالد بن عبد الله القسري مِن قِبل هشام بن عبد الملك، فقال الفرزدق:

ألا قطعَ الرحمن ظهر مطيَّة أتَتنا تُخطِّي من دمشقٍ بخالدِ
وكيف يؤمِّ المسلمين وأمُّه تَدين بأن الله ليس بواحدِ

فحقد عليه وتربَّص به الدوائر، واعتلَّ بهجائه نهر المبارك الذي حفره خالد، فأمر بحبسِه، فخاف الفرزدق كثيرًا ومدح خالدًا وهو محبوس، واستجار بهشام ومدَحَه كثيرًا، وكان مما قاله في السجن:

أبلِغْ أمير المؤمنين رسالة فعجِّل هداكَ الله نزعَك خالدًا
بنى بيعة فيها الصليبُ لأمه وهدَّم من بُغضِ الصلاة المساجدا

فأمر هشام بإطلاقه.

وعُمِّر الفرزدق طويلًا ونيَّف على التسعين، وتُوفي بالبصرة سنة ١١٠، وقيل سنة ١١٢، وقيل سنة ١١٤، وقبره بالبصرة في مقابر بني تميم، وكان مرضه ذات الجنب، وقيل: الدبيلة، فوُصف له أن يشرب النفط الأبيض، فقال لابنه لبطة: يا بُني، عجَّلتَ لأبيك شراب أهل النار. وأوصى وهو في مرضه عتق عبيده بعد موته وبدفع شيء من ماله إليهم، فلما احتُضر جمع سائر أهل بيته وأنشأ يقول:

أروني مَن يقوم لكم مقامي إذا ما الأمرُ جلَّ عن الخطاب
إلى مَن تَفزعون إذا حثوتم بأيديكم عليَّ من التراب

فقال له بعض عبيده الذين أمر بعتقِهم: إلى الله. فأمر ببَيعِه قبل وفاته وأبطل وصيته فيه.

ومن زوجات الفرزدق: النُّوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي، وليست أول زوجاته؛ لأنه يقول:

وقد سخطت مني نوار الذي ارتَضَت به قبلها الأزواج خابَ رحيلُها

وقد طلقها كما مرَّ، وحدراء بنت زيق الشيباني، تُوفيت قبل أن يَبني عليها. ورهيمة بنت غني النمرية، نشزت فطلقها وقال من أبيات:

لـهـا بـشـر شـثـنٌ كـأنَّ مـضـمَّـه إذا عـانـقـت بـعـلًا مـضـمُّ قـتـادِ
قرنتُ بنفسي الشؤم في وردِ حوضها فـجُـرعـتُـه مـلـحًـا بـمـاءِ رمـادِ
ومـا زلـت حـتـى فـرَّق الـلـه بـيـنـنـا لـه الـحـمـد مـنـهـا فـي أذًى وجـهـادِ

وظبية ابنة حالم من بني مجاشع، تزوجها بعد أن أسنَّ فنشزَت منه. وورَد في شعره ذكر امرأة اسمها سويدة، قال (الديوان، طبعة بوشر، ص١٣٢):

ألا زعمت عرسي سويدة أنها سريع عليها حفظتي للمَعَاتبِ

عدا من ملكت يمينه، وكان يحب التزوُّج بالزنجيَّات.

وأما أولاده فقد ذكرهم صاحب الأغاني، فقال: وكان له من الولد خبطة ولبطة وسبطة، هؤلاء هم المعروفون، وكان له غيرهم فماتوا ولم يُعرفوا. وكان له بنات خمس أو ست، ذكر منهنَّ واحدة اسمها مكيَّة كانت أمها زنجية، وكان الفرزدق إذا حميَ الوطيس وبلغ منه الهجاء يكتني بها ويقول:

ذاكم إذا ما كنتُ ذا محميَّه بـدارمـي أمـه ضـبِّـيـة
صمحمح يُكنى أبا مكِّيَّه

وكان ابنه لبطة من العقَقة، وفيه يقول:

أإن أرعشَتْ كفًّا أبيكَ وأصبحَتْ يداك يدَي ليثٍ فإنَّك جاذبه
إذا غالبَ ابنٌ بالشباب أبًا له كبيرًا فإن الله لا بدَّ غالبُه

وذكر للَبْطةَ هذا ولد اسمه أعين، وانقطع نسل الفرزدق من جهة أولاده الذكور. وكان للفرزدق حلقة خاصة في المربد، وكان له رواة يكتبون شعره ويروونه، منهم: أبو شفقل، وعمرو بن عفراء الضبي، وعُبيد بن حنظلة، وعبد الله بن زالان، وعبد الله بن عطية، وابن مثوبة.

صفته وأخلاقه

كان الفرزدق قصيرًا ضخمًا، ذا وجه جهم مدوَّر مجدور، أصلع، يُرسل ما وراء صلعته من شعره ضفيرتين يُخضبهما مع لحيته بالحنَّاء، قال:

خضبتُ بجيِّد الحناء رأسي ليَعقُب حُمرة بعد البياضِ
هما لونان من هذا وهذا كِلا اللونَين لستُ له براضِ

وقال جرير وسمَّاه بالقريد الأصلع:

ولقد صككتُ بني الفدوكس صكة فلقوا كما لقيَ القريد الأصلعُ

وقال:

وهل كان الفرزدق غير قردٍ أصابتْه الصَّواعق فاستَدارا

وقال يُعيِّره القِصَر والثرثرة:

وإذا بطنتَ فأنتَ يا ابن مجاشع عند الهَوانِ جُنادف نثَّارُ

وكان الفرزدق صغير القدمين، يَعتمُّ بعمامة كبيرة شبَّهه صاحب الأغاني بالمنسف، ووصف ثيابه إبراهيم الزهري فقال: «طلع الفرزدق علينا في حلَّة أفواف يَمانية موشَّاة له غديرتان.» وكان في مواقف المفاخرة يَرتدي الألبسة الفاخرة، قال الحجاج يومًا له ولجرير: ايتياني في لباس آبائكما في الجاهلية، فلبسَ الفرزدق الديباج والخز وقعد في

قُبة،[1] ولبس جرير درعًا وتقلَّد سيفًا وأخذ رمحًا وركب فرسًا، وأقبل في أربعين فارسًا، وقال في ذلك:

لبستُ سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كُرَّج وخلاخلُهْ
أعدوا مع الخزِّ الملاء فإنما جريرٌ لكم بعلُ وأنتم حلائلهْ

وقال:

وبنا يُدافَع كلُّ أمر عظيمة ليسَت كنَزوِك في ثياب الكُرَّقِ

والكرق: هو الكرج الذي يَلعَب به المخنثون.

وكان الفرزدق فخورًا تيَّاها، يَفخر بنفسه وبآبائه، ويُعظِّم قبر أبيه ويُقدس ذكراه، أخذ على نفسه أن يُجير كلَّ من استجار بقبر أبيه. ذكروا أن امرأة أتت الفرزدق، فقالت له: إني عُذتُ بقبر غالب، قال: ما حاجتك؟ قالت: إن ابني في بعث السند مع تميم بن زيد القيني، وقد جعلتُ على نفسي أن لا أفارق القبر حتى يُردَّ إليَّ ابني. وكان اسم ابنها خنيسًا، فكتب الفرزدق إلى تميم بن زيد:

تميم بن زيد لا تكونَّن حاجتي بظهرٍ فلا يَعيا عليَّ جوابها
فهب لي خُنيسًا واتَّخذ فيه مِنَّةً لحوبة أمٍّ ما يَسوغُ شَرابها
أتَتْني فعاذَت يا تَميم بغالبٍ وبالحُفرة السافي عليه ترابها

فلم يدرِ تميم أخُنَيس أم حبيش، فأطلق كل من اسمه على هذا الهجاء.

وأصاب رجل دمًا فاستَغاث بقبر غالب، فافتكَّه الفرزدق بمائة ناقة، وفي ذلك يقول الفرزدق:

دعا دعوةً بين المُقرِّين غالبًا وعاذ بقبرٍ تَحته خير أعظمِ
فقلتُ له أُقريك من قبرِ غالب هُنيدةَ إن كانت شفاء من الدمِ

[1] قال أبو عبيدة: وقف جرير بالمربد وقد لبسَ درعًا وسلاحًا تامًّا وركب فرسًا، فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشْي وسوارًا وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير (النقائض، ص٦٢٤).

يَنام الطريد بعدها نومة الضحى ويَرضى بها ذو الإحنة المتحرِّم
ألا هل عَلمتم ميِّتًا قبل غالب قرى مائةً ضيفًا له لم يُكلم؟!

وضرب مكاتبٌ لبني منقر خيمة على قبر غالب، فقدم الناس على الفرزدق فأخبروه أنهم رأوا بناءً على قبر غالب أبيه، ثم قدم عليه المكاتب وهو بالمربد فقال:

بقبر ابنِ ليلى غالبٍ عُذتُ بعدما خشيتُ الردَّى أو أن أرد على قسرِ
فخاطبني قبرُ ابن ليلى وقال لي فكاكك أن تَلقى الفرزدق بالمصرِ

فقال له الفرزدق: صدق أبي، أنخ أنخ، ثم طافَ في الناس حتى جمع له كتابته وفضلًا.

وقد أبى عليه كرمه أن يأخذ ميراثه من زوجه حدراء بنت زيق الشيباني؛ وذلك أنها توفيت قبل أن يَبني عليها، فقال له أبوها — وكان نصرانيًّا: قد عرفنا في دينكم الذي يُصيبك من ميراثها النصف، فهو لك عندنا. قال: لا والله لا أرزؤك منه قطميرًا، وهذه صدقتها فاقبضها. فقال: يا بني دارم، والله ما شارَكَنا أكرم منكم لأصهاركم في الحياة، ولا أكرم منكم شركة في الممات.

وكان صافن رجلًا من بني العنبر إداوةً في وقتِ فرامه العنبري وسامه أن يُؤثِره، فلم تطب نفسه عن نفسه، فقال:[٢]

فلما تصافنَّا[٣] الإداوة أُجهشت إلي غصون العنبري الجُراضمِ
فجاء بجلمودٍ له مثل رأسه ليشرب ماء القوم بين الصَّرائمِ
على ساعة لو أن في القوم حاتمًا على جوده ضنَّت به نفسُ حاتمِ

وهو مع هذا الكرم لا يستنكف من الاستجداء بشِعره؛ فقد كان في مدحه لخلفاء بني أمية يشكو الخلَّة ويطلب المعونة، وربما هدَّد الرؤساء والأغنياء بالهجاء إذا لم يبذلوا له

[٢] الكامل للمبرد، ج١، ص١١١.

[٣] تصافن القوم الماء: تقاسموه بالحصص؛ وذلك بأن توضع حصاة في أسفل الإناء ويُصبَّ فيه قدر ما يغمرها من الماء، فيشرب الواحد ثم يصب أيضًا كذلك فيشرب الآخر، وهلُمَّ جرًّا، فينال كل واحد مثل نصيب صاحبه. يستعملون ذلك في الأسفار عند قلة الماء.

ما يريد. قال المبرد (الكامل، ج١، ص٢١٣): وعد خالد بن صفوان الفرزدق شيئًا فأخَّره عنه، فمرَّ به الفرزدق فهدَّده، فأمسك عنه حتى جاز الفرزدق، ثم أقبل على أصحابه فقال: إن هذا قد جعل إحدى يدَيه سطحًا وملأ الأخرى سلحًا، وقال إن عمَّرتم سطحي وإلا نضحتُكم بسلحي. وكان لا يرى غضاضة في الأخذ ممن هو مثله أو دونه، زار مرةً وهو في الحجاز كُثيِّر عزة، فأعطاه عشرين دينارًا، قال الفرزدق: هممتُ أن لا أقبل منه، فدعَتْني نفسي وهي طَمِعة إلى أخذها منه فأخذتها. ودخل يومًا المربد فلقيَ رجلًا من موالي باهلة ومعه نحي من سمن يَبيعه، فسامه إياه، فقال له أدفعه إليك وتهبُ لي أعراض قومي؟ فرضي.

ولا تحسب أن هذا التناقُض في أخلاق الفرزدق يقف عند هذا الحد، بل هناك مجموعة من المتناقضات، فكما أنه جوَّاد وسئول فهو أيضًا جافٌّ خشن، وإلى جفائه دعابة ونكتة وجواب حاضر، دخل مرة على بلال بن أبي بردة وعنده ناس من اليمامة فضحكوا، فقال: يا أبا فِراس! أتدري مما ضحكوا؟ قال: لا. قال: من جفائك. وليس أدل على قساوة طبعه وخشونته من كره أزواجه له ونشوزهنَّ منه؛ فقد تزوج النوار بحيلة فلجأت إلى ابن الزبير بالحجاز ليُفرِّق بينهما، فما زال الفرزدق يستعطفها حتى عادَت معه على كُرهٍ وعاشت معه عيشة نَكد إلى أن طلقها بعد أن بذلت في سبيل ذلك كل وسيلة، وهو نفسه يُخبرنا كيف كان تضيق به ذرعًا فتنتف لحيته، قال:

قامت نوار إليَّ تَنتِف لحيتي تَنتاف جعدة لحية الخَشخاشِ
كِلتاهما أسد إذا ما أُغضبت وإذا رضينَ فهنَّ خير معاش

وزوجتاه رهيمة النمرية وظبية ابنة حالم نشَزَتا فطلَّقهما، ولعل جفاء طبعه أحرج ابنه لبطة فجعله عاقًّا.

ولكنه إلى جنبِ ذلك يَميل إلى الدعابة في كثيرٍ من الأحيان، وله فيها أشياء مُستملَحة: كان لرجل من بني تميم على شرطة البصرة امرأة جميلة، فراصده الفَرزدق يومًا حتى مرَّ إلى مجلسه، ثم لم يَزَل يحومُ حول داره حتى لقيَ امرأته ومعها جارية لها، وكان عليه ثوب وشي، فقالت الجارية لمولاتها: ألا ترين هذا البُرد على هذا الأعرابي، ما أحسنه! فقال لها الفرزدق: هل لكِ أن أُقبِّل مولاتكِ قُبلة وأُعطيكِ هذا البرد؟ فقالت الجارية لمولاتها: وما عليكِ من هذا الأعرابي الأحمق. فلما تابعَتْه على ذلك قبَّلها ودفع البرد إلى الجارية وقال لها: اسقيني ماء. فأتَته بماء في قدحٍ زجاج، فلما وضعته في يده ألقاه فانكسر، ثم قعد

قريبًا من باب الدار، فلمَّا أتى الرجل أبصره ببابه، فقال: ما يُقعدك ها هنا يا أبا فراس؟ ألك حاجة؟ قال: لا، ولكني استسقيتُ أهل البيت فأتوني بقدحٍ فانكسر فأخذوا بُردي رهنًا. فدخل الرجل فشتم أهله ثم قال: ردُّوا على الفرزدق بُرده.

ومرَّ الفرزدق يومًا بمجلس بني حرام، فقال له عنبسة مولى عثمان بن عفان: يا أبا فراس، متى تذهب إلى الآخرة؟ قال: وما حاجتك إلى ذاك يا أخي؟ قال: أكتب معك إلى أبي، قال: أنا أذهب إلى حيث أبوك في النار؟ اكتب إليه مع ريالويه واصطفانوس. وهجا مرة روايته عمرو بن عفراء الضبي، فغضب وأتاه في نادي قومه، وكان مما قال له: والله لا تَنهاني عن شيء إلا أتيته. فقال الفرزدق: فاشهدوا أني أنهاه أن يَنال أمه. وذكر صاحب الأغاني أن هاشم بن القاسم العنزي قال: جمعني والفرزدق مجلس، فتجاهلت عليه، فقلتُ: مَن أنت؟ قال: أما تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو فراس، قلت: ومن أبو فِراس؟ قال: أنا الفرزدق، قلت: ومَن الفرزدق؟ قال: أوَ ما تعرف الفرزدق؟ قلت: أعرف الفرزدق أنه شيء يتَّخذه النساء عندنا يتسمنَّ به، فضحك وقال: الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائكم. ولما وُصف له النفط في مرضه الذي مات به قال لابنه: يا بُني، عجَّلتَ لأبيك شراب أهل النار.

وكان الفرزدق فاسقًا ماجنًا خليعًا يشرب الخمر — إن وجد إليها سبيلًا — ويأتي المنكرات ولا يَزعُه عن الفواحش حياء أو دين أو شيب، ويُجاهر بالمعاصي، قال في شرب الخمر:

وإجَّانة ريا الشروب كأنها إذا اغتُمسَت فيها الزجاجة كوكبُ
مختَّمة من عهد كِسرى بن هرمز بكرنا عليها والفراريح تَنعبُ
سبقتُ بها يوم القيامة إذ دنا وما للصبي بعد القيامة مطلبُ

وقال يُجاهر بالمعاصي:

أما الزِّناء فإني لستُ تاركه والمال بيني وبين المرء نصفانِ

وطالما هجاه جرير بشرب الخمر والفجور، وأخبار مُجونِه وخلاعته مُدوَّنة في كتب الأدب. ولكنه مع ذلك كان حَسَن الإيمان بالله، يُقيم الصلوات، ويُعجبه من قومه أن يتدارسوا القرآن ويُكثروا من تلاوته، يُقرُّ بذنوبه ويستغفر الله لها ويخشى عذاب الآخرة، ويَهجو إبليس الذي يُزيِّن له المعاصي ويُطغيه. قال المبرد في الكامل (ج١، ص٥٧): التقى

الحسن البصري والفرزدق في جنازة، فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس، فقال الحسن: كلا لستُ بخيرهم ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، وخمس نجائب لا يُدركن، يعني: الصلوات الخمس. وقال: كان الفرزدق يخرج من منزله فيرى بني تميم والمصاحف في حجورهم فيُسَرُّ بذلك ويَجذل به ويقول: إيهٍ فدًى لكم أبي وأمي، كذا والله كان آباؤكم.

وقال: والفرزدق يقول في آخر عمره حين تعلَّق بأستار الكعبة وعاهد الله أن لا يكذب ولا يشتم مسلمًا:

ألم تَرني عاهدتُ ربي وأنني ... لبَين رتاج قائمًا ومقامِ
على حلفةٍ لا أشتم الدهر مسلمًا ... ولا خارجًا من فيَّ زور كلام

وفي هذا الشعر:

أطعتُكَ يا إبليس تسعينَ حَجَّة ... فلما انقَضى عمري وتمَّ تمامي
رجعتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني ... مُلاقٍ لأيامِ المنون حمامي

وقال صاحب الأغاني: قال الرقاشي: خرجتُ في ليلة باردة فدخلت المسجد، فسمعت نشيجًا وبكاءً كثيرًا، فلم أعلم من صاحب ذلك، إلى أن أسفر الصبح فإذا الفرزدق، فقلتُ: يا أبا فراس، تركت النوار وهي لينة الدثار دفئة الشعار. قال: إني والله ذكرت ذنوبي فأقلقَتْني ففزعتُ إلى الله عزَّ وجل.

وكان على تبجُّحه بتفليق الجماجم وحزِّ الغلاصم من أجبنِ خلق الله، إذا قيل له أجب الأمير أخذته القشعريرة وصار أودع مِن حمامة، قال لَمَّا طلبه زياد بن أبيه:

إذا ذكرَتْ نفسي زيادًا انكمشَتْ ... من الخوف أحشائي وشابَتْ مفارقي

وقال:

أتاني وعيدٌ من زيادٍ فلم أَنَمْ ... وسيل اللوى دوني وهَضبُ التهائمِ
فبِتُّ كأني مشعر خيبرية ... سَرَتْ في عظامي أو سمام الأراقمِ
فدعني أكن ما كنتُ حيًّا حمامة ... من القاطنات البيت غير الروائمِ

قال القالي في ذيل الأمالي (ص٧٦): «لَمَّا كان يوم من أيام دير الجماجم حمل حاجب بن خشينة العبشمي في الخيل على أهل العراق مع الحجاج فأزال صفوفهم، فقال الحجاج للفرزدق وهو عنده: ألا ترى ما أكرم حملة ابن عمِّك؟ فقال: أيها الأمير، إنه رجل جوَّاد، وقد سفر ماله (أي مزقه)، فحمل حملة مفلس. فقال له الحجاج: فهل لك أن تحمل كما حملَ وأُلحِق عطاءك بعطائه؟ فقال: إني أخاف إذا حملت أن يَنقطِع أصل العطاء.»

وكان لصَّان في طريق البصرة يُسمَّيان «الشبثين»؟ يقطعان الطريق ويَسلُبان الناس، فقال الفرزدق يتمنى لقاءهما ليُريح الناس من شرِّهما:

يا ليتني «والشبثين»؟ نلتقي ببلدٍ ليس به من نتَّقي
ثم يُحاط حولنا بخندقٍ ثم يُقال يا فرزدقُ اصدُقِ

فبلغهما تمنِّيه لقاءهما فلقياه، وتمت الرواية بأن عبَثا به وأخذا منه شيئًا ثم ردَّاه إليه.

وربما تنادر عليه الناس بالتخويف والتهويل، قال صاحب الأغاني: بينما الفرزدق جالس بالبصرة أيام زياد في سكة ليس لها منفذ، إذ مرَّ به رجلان من قومه كانا في الشرطة وهما راكبان، فقال أحدهما لصاحبه: هل لك أن أفزعه؟ وكان جبانًا، فحرَّكا دابَّتيهما نحوه فأدبر مُولِّيًا، فعثر في طرف برده فشقَّه وانقطع شسع نعله وانصرفا عنه، وعرف أنهما هَزَءا منه فقال:

لقد خار إذ يَجري على حماره ضرار الخنا والعنبريُّ ابن أخوقا
وما كنتُ لو خوَّفتُماني كلاكما بأميكما عن بانتَين لأَفرُقا
ولكنما خوفتُماني بخادرٍ شتيم إذا ما صادفَ القِرن مزقا[٤]

ودخل الفرزدق مرة مع فتيان من آل المهلب في بِركة يتبرَّدون فيها، ومعهم ماجن يُقال له ابن أبي علقمة، فجعل يتفلَّتُ إلى الفرزدق ويقول: دعوني ... حتى لا يهجونا أبدًا، فجعل الفرزدق يستغيث ويقول: ويلكم، لا يمسُّ جلده جلدي.

[٤] يُرجع إلى هذه القصة في ديوان الفرزدق، طبعة بوشر، ص٤٩.

ومما يدل على جبنه ارتعاش يده لَمَّا ضرب عنق الأسير، وجعل المستشرق الألماني الأستاذ شادي في الفصل الذي كتبه على الفرزدق في دائرة المعارف الإسلامية هذه الحادثة دليلًا على قساوته أيضًا، وخبر ذلك كما رواه ابن قتيبة في الشعر والشعراء: أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق أن يضرب عنق أسير رُومي، فنبا السيف عنه في يده، فضحك الناس فقال:

أيُعجِبُ الناس أن أضحكتُ خيرهم خليفة الله يُستسقى به المطر
لم ينبُ سيفيَ من رعبٍ ولا دهشٍ عن الأسير ولكن أخَّرَ القدرُ
ولن يُقدِّم نفسًا قبل مدتها جمع اليدَينِ ولا الصمصامة الذكرُ

ثم قال:

ما أن يُعاب سيدٌ إذا صبا ولا يُعاب صارمٌ إذا نبا
ولا يُعاب شاعر إذا كبا

وقال جرير في ذلك:

بسيف أبي رغوان قينِ مجاشع ضربتَ ولم تَضرب بسيف ابن ظالمِ
ضربت به عند الإمام فأُرعِشَت يداكَ وقالوا مُحدَثٌ غير صارمِ

فقال الفرزدق:

ولا نَقتل الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقل الأعناق حملُ المغارمِ
فهل ضربة الرُّومي جاعلة لكم أبًا عن كليب أو أبًا مثل دارمِ

أما هواه السياسي فشعره يدل على أنه مع بني أمية، ولكن الواقع أنه مع القويِّ الغالب من قريش أيًّا كان. تراه في أيام معاوية ويزيد يخصُّ بالحرمة من الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، ويُنوِّه بذكر بني أمية كما ورَد في قصيدته التي مدح بها سعيد بن العاص. فلما مات يزيد واختلَّتْ أحوال بني أمية وخلع أهل البصرة عاملها عبيد الله بن زياد واختاروا عبد الله بن الحرث واليًا عليهم وكتبوا لابن الزبير بالبيعة له، كان الفرزدق

من جملة المبايعين، ثم لما بعث عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله بن أُسيد إلى البصرة ليأخذ البيعة له، ولحق به جماعة من تميم وخلعوا ابن الزبير قال الفرزدق يلومهم:

عجبتُ لأقوامٍ تميمٌ أبوهُمُ ... وهم في بني سعد عظام المباركِ
وكانوا رءوس الناس قبل مَسيرهم ... مع الأزد مصفرًّا لحاها ومالكِ
ونحن نفَينا مالكًا عن بلادنا ... ونحن فقأنا عينَهُ بالنيازكِ
أبا حاضران تلقَهُ الخيل تلقه ... على لاحق أبزيمه بالسَّنابك
فما ظنكم بابن الحواري مصعب ... إذا افترَّ عن أنيابه غير ضاحِك

ولكنه لما تمَّ الأمر لعبد الملك أصبح خليفة الله، وصار ابن الزبير كذاب مكة قال:

فالأرض لله ولَّاها خليفَتَه ... وصاحب الله فيها غير مغلوبِ
بعد الفساد الذي قد كان قام به ... كذاب مكة مِن مكرٍ وتخريب

وصار بعد ذلك يُنكِر على كلِّ مَن عصى بني أمية ويَرضى عمَّن أطاعهم؛ فقد هجا عبد الرحمن بن الأشعث وأنكر عليه عصيانه على بني أمية بقصيدة أولها:

لبئستْ هدايا القافلين أتَيتُمُ ... بها أهلَكُم يا شرَّ جيشَينِ عُنصرًا

وقال في السميدع الزهراني، وكان يدعو ليزيد بن المهلب في عصيانه على بني أمية، فكره رجال من بني تميم الفتنة ولحقوا بالشام:

فدًى لرءوسٍ من تميم تَتابعوا ... إلى الشام لم يَرضَوا بحكم السميدع
أحكمُ حروريٍّ من الدين مارق ... أضلَّ وأغوى مِن حمار مُجدَّعِ

وقال في فتنة يزيد بن المهلب:

لقد كذب الحي اليمانون شقوةً ... بقحطانها أحرارُها وعبيدها
يرومون حقًّا للخلافة واضحًا ... شديدًا أَواسيها طويلًا عمودها
فإن تصبروا فينا تقرُّوا بحكمنا ... وإن عدتمُ فيها فسوف نُعيدها

ولما ولَّى عبد الملك أخاه بشرًا العراق اختصَّ به الفرزدق، ولما مات بشرٌ رثاه وذهب إلى قبره وعقَرَ عليه فرسه، وصار منذ ذاك الحين عثمانيًّا أمويًّا يَفتخر بأخواله بني ضبة وببلائهم مع السيدة عائشة يوم الجمل:

وأنا ابن حنظلة الأغرُّ وإنني ... في آل ضبة لَلمُعمُّ المُخوَلُ
وعشيَّة الجمل المُجلَّل ضاربوا ... ضربًا شئون فراشِه تَتزيَّلُ

ويمدح بني أمية بانتصارهم يوم صفين ويتقرَّب إليهم بأنه جارٌ مروان:

أبى الله إلا نَصرَكم بجنودِه ... وليس بمَغلوب مِن الله صاحبه
وكائن إليكم قادَ مِن رأس فتنة ... جنودًا وأمثال الجبال كتائبه
فمنهنَّ أيام بصفين قد مضَت ... وبالمرج والضحاك تُجري مقانبه
سما لهما مروان حتى أراهما ... حياض منايا الموت حمرًا مَشاربه
فما قام بعد الدار قوَّاد فتنة ... ليُشعلَها إلا ومروان ضاربُه
أبى الله إلا أنَّ ملككم الذي ... به ثبت الدين الشديد نصائبه

وهو في أماديحه لخلفائهم يغلو فيهم أكثر من جميع شعرائهم، فيجعل الخلافة حقهم الذي لا يختلف فيه اثنان؛ لأنهم ورثوا عثمان الذي أفضت إليه الخلافة بحكم الشورى، ويزعم أنهم يضربون بسيف النبي، وأن أعداءهم كأعداء النبي يوم بدر، وأنهم الأئمة الهادون المهديُّون، ولا سيما سليمان بن عبد الملك؛ فلقد كان يُلقبه بالمَهديِّ دائمًا، وأن الوحي يكاد ينزل عليهم — كما سيأتي ذلك — مفصَّلًا عند الكلام على مدحه. وكان يَكيل المدح لعُمالهم جُزافًا؛ فقد مدح الحجاج كثيرًا وزعم أن الله كان يُمدُّه بملائكة من عنده، قال في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث:

دعوا ودعا الحَجَّاج والخيلُ بينها ... مدى النيل في سامي العَجاجة أكدَرا
إلى باعث الموتى ليُنزل نصرَه ... فأنزل للحَجاج نصرًا مؤَزَّرًا
ملائكةً مَن يجعل الله نصرهم ... له يكُ أعلى في القتال وأصبرا
رأوا جِبرئيلَ فيهمُ إذ لَقُوهم ... وأمثاله من ذي جناحَينِ أظهَرا
فلما رأى أهلُ النفاق سلاحَهم ... وسيماهمُ كانوا نَعامًا مُنفَّرًا

ورثى أخاه وابنه، فلما مات الحجاج رثاه، ثم لَمَّا بويع لسليمان بن عبد الملك — وهو يكره الحَجاج — مدح سليمان وهجا الحجاج. قال ابن عياش: لقيتُ الفرزدق فقلت له: يا أبا فراس، أنت الذي تقول:

فليتَ الأكفَّ الدافئات ابن يوسف يُقطَّعن إذ غُيِّبنَ تحت السَّقائفِ؟

فقال: نعم أنا، فقلت له: بمَ قلت بعد ذلك له:

لئن نفر الحجاج آل معتِّب لقوا دولة كان العدو يُدالها
لقد أصبح الأحياء منهم أذلةً وفي النار مَثواهم كلوحًا سبالها

فقال: نعم، نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه، فإذا تخلَّى منه انقلبنا عليه.

وقد زعَم بعض من ترجم للفرزدق أنه كان يرى رأي الشيعة في بني أمي، وجميع ما قاله في بني أمية والخلافة حُجة على تلك الدعوى لا لها، فما أدري بماذا يَستدلُّون ولا كيف يفهمون ويحكمون! ورد في النقائض (ص٣٦٦) أن سليمان بن عبد الملك حجَّ بالناس، فبلغه وهو بمكة أن بني تميم خلعوا طاعته، فخطب الناس بعرفات وذكر غدرَ بني تميم ووثوبهم على سلطانهم وإسراعهم إلى الفتن، وقال إنهم أصحاب فِتَن وأهل غدر وقلة شكر، فقام الفرزدق وفتَح رداءه وقال: يا أمير المؤمنين، هذا ردائي رهنٌ لك بوفاء تميم، والذي بلغك كذب، ثم جاءت بيعتُهم لسليمان، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أتاني ورَحلي بالمدينة وَقعة لآلِ تميم أقعَدَت كل قائمِ
كأنَّ رءوس الناس إذ سمعوا بها مدمَّغة من هازمات أمائم
فِدًى لسيوف من تميم وفى بها ردائي وجلَّتْ عن وجوه الأهاتمِ

أما كونه يُحب آل البيت ويُجلُّهم فهذا ما يُشارك به جميع المسلمين، على أنه لم يَذكر في كل شعره أحدًا من آل البيت إلا زين العابدين في ستة أبيات؛ وهي:

إذا رأتْهُ قريشٌ قال قائلها إلى مكارم هذا يَنتمي الكرمُ
هذا الذي تَعرِفُ البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحل والحرمُ
يكادُ يُمسكه عرفان راحته ركنُ الحطيم عليه حين يستلمُ

هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهم هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العَلَمُ
مَن يَشكُر الله يَشكر أوليَّة ذا فالدِّين من بيت هذا ناله الأممُ
أيُّ القبائل ليسَت في رقابهم لأوليــة هــذا أو لــه نِــعــمُ

مدحه بها بالشرف والمكارم والدين والتقوى التي يُقرُّ لزين العابدين بها خلفاء بني أُمية أنفسهم، ثم زاد الناس على هذه الأبيات قصيدة للحزين الكناني يَمدح بها عبد الله بن عبد الملك، قال صاحب الأغاني (ج٤، ص٧٥): «والناس يَروُون هذين البيتين:

في كفِّه خَيزران ريحها عبق من كفِّ أروعَ في عرنينه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويغضى من مهابته فلا يُكلم إلا حين يَبتسمُ

للفرزدق في أبياته التي يمدح بها علي بن الحسين، وهو غلط ممَّن رواه فيها، وليس هذان البيتان مما يُمدح به مثل علي بن الحسين عليهما السلام وله من الفضل المتعالَم ما ليس لأحد.» ثم نسبهما مع أبيات أُخَر للحزين الكناني وقال: «والصحيح أنهما للحزين في عبد الله بن عبد الملك، وأبيات الحزين مؤتلفة منتظمة المعاني مُتشابهة تُنبِئ عن نفسها.»

وذكر صاحب الأغاني خبرًا للفرزدق يتعلق بآل البيت، فقال: «لقيَ الفرزدق الحسين بن علي عليهما السلام متوجهًا إلى الكوفة خارجًا من مكة في اليوم السادس من ذي الحجة، فقال له الحسين صلوات الله عليه وآله: ما وراءك؟ قال: يا ابن رسول الله، أنفُسُ الناس معك وأيديهم عليك، قال: ويحك، معي وقرُ بعيرٍ من كتبهم يدعونني ويُناشدونني الله. فلما قُتل الحسين صلوات الله عليه قال الفرزدق: فإن غضبَت العرب لابن سيدها وخيرها فاعلموا أنه سيدوم عزُّها وتَبقى هيبتَها، وإن صبرت عليه ولم تتغيَّر لم يَزدْها الله إلا ذلًّا إلى آخر الدهر، وأنشد في ذلك:

فإن أنتمُ لم تثأروا لابن خيركم فألقوا السلاح واغزلوا بالمغازلِ»

وذكر الطبري في تاريخه (ج٦، ص٢١٨): أن الفرزدق لقيَ الحسين بمكة، ونقل الحديث الذي دار بينهما بمثل ما رواه صاحب الأغاني، وزاد عليه: أن الفرزدق لقيَ بعد ذلك عبد الله بن عمرو بن العاص، قال الفرزدق: «ثم مضيتُ فإذا بفسطاط مضروب في الحرم وهيئته حسنة، فأتيته فإذا هو لعبد الله بن عمرو بن العاص، فسألني فأخبرتُه

بلقاء الحسين بن علي، فقال لي: ويلك، فهلا اتبعته؟ فوالله ليُملَكنَّ ولا يجوز السلاح فيه ولا في أصحابه، فهممتُ والله أن ألحق به ووقَع في قلبي مقالته، ثم ذكرتُ الأنبياء وقتلهم فصدَّني ذلك عن اللحاق بهم.» هذا ما رُويَ عن الفرزدق، ولكن شعره خلا حتى من الإشارة إلى هذه الحادثة.

ولعلَّ أدنى الآراء إلى الصواب أن نقول إنَّ الفرزدق يقول بالعصبية العربية، وبالمضرية منها على القحطانية، ويرى أن قريشًا أشرف العرب وأجدرها بالحكم، وأشرف قريش هاشم وعبد شمس. قال يَهجو المهلب بن أبي صفرة ويدَّعي أنه نبطي، وفي قوله حميَّة جاهلية وعصبية للعرب في جاهليتها وإسلامها:

فكيف ولم يَأتُوا بمكة منسكًا ولم يَعبُدوا الأوثان عند المحصَّبِ

وقال يهجو المهلب أيضًا:

وكيف ولم يَقُد فرسًا أبوكم ولم يَحمل بَنيه إلى «الدوار»
ولم يَعبُد «يغوث» ولم يشاهد لِحِمْيرَ ما تَدين ولا نزارِ
وما لله تَسجُد أزد بصرى ولكن يَسجُدون لكل نار

«والدوار ويغوث من أصنام العرب في الجاهلية»، ومثله قوله في بني حنيفة الذين قاتَلَهم خالد بن الوليد وهم مع مسلمة:

ولو بأُباض إذ لاقوا جلادًا بأيدي مثلهم وسيوف كفرِ
لذادوا عن حريمهم بضربٍ كأفواه الأوارك أيَّ هبر
ولكن جالدوا ملكًا كرامًا هم فضُّوا القبائل يوم بدر

يقول لو قاتلوا مثلهم لغلبوهم، ولكن قاتلوا الدين والملائكة.

وقال في تفضيل قريش:

ما حملَت ناقة من معشر رجلًا مثلي إذا الريح لفَّتْني على الكورِ
أعز قومًا وأوفى عند مكرمة معظَّم من دماء القوم مَهجورِ
إلا قريشًا فإن الله فضَّلها على البرية بالإسلام والخيرِ

قال لبطة: بينا أنا والفرزدق في المسجد الحرام إذ أقبل رجل من قريش جميل، فلما رآه أعجبه فأقبل عليَّ وقال:

إنَّ قريشًا خيار الناس خيرُهُم وشرُّهم سيد الأشرار في النار

وقال في خالد القسري، وهو يمني:

سلوا خالدًا لا أكرم الله خالدًا متى وَليَت قسرٌ قريشًا تَدينها
أقبلَ رسول الله أم بعد عهده فتلك قريش قد أغثَّ سمينُها

وقال في تقديم هاشم وعبد شمس من قريش:

ولو سُئلت مَن كفؤها الشمسُ أومأت إلى ابنَي منافٍ عبد شمس وهاشمِ

شعره

أجمع الرواة والنُّقَدة وأهل البصر بالشعر على أن الفرزدق شاعر العرب في العصر الأموي؛ وذلك لأنه يُمثل حياة ذلك العصر أكثر من كل شاعر إسلامي؛ فالعصر الأموي عصر إسلامي عربي خالص، تَغلب عليه سذاجة البداوة في الأدب والسياسة والاجتماع. ولا تجد شعرًا أكثر تأثُّرًا بالإسلام والعصبية العربية، ولا أصح لغةً وأجزل أسلوبًا، ولا أجمع لشوارِد العربية وفصحها وأخبار العرب وأيامهم من شعر الفرزدق.

أما تأثُّره بالإسلام أكثر من جميع الشعراء، فلأنه كان يحفظ القرآن، فأثَّر في نفسه أثرًا بليغًا كان مِن أهم مصادر شعره، أضف إلى ذلك صحبته الحسن البصري العالم التقي الواعظ، حتى كثرت في شعره الألفاظ الإسلامية؛ كالفرقان والدين والرسول والنبي والإسلام والإيمان والكفر والجنة والنار والملائكة والأجَل والبعث والحساب، كما كَثُرت الإشارة إلى القصص القرآني والاستمداد منه والاستشهاد به؛ كقصة آدم وحواء وإبليس، ونوح، وإبراهيم، وإسحق، وصالح والناقة، ويوسف، وفرعون، وعاد وثمود، وداود وسليمان، ويونس، والسامري، ويأجوج ومأجوج، والفيل. أَضِف إلى ذلك نَظم بعض معاني القرآن، وذِكر الآخرة وعذابها والخشية من الحساب، مع التأثُّر بالتعابير القرآنية، وما إلى ذلك من آثار الطابع القرآني الذي يَظهر على شعره واضحًا جليًّا، والشواهد على ذلك كثيرة، نورد بعضها:

قال من قصيدة يهجو بها إبليس:

ألم تأتِ أهل الحِجر والحِجرُ أهلُه بأنعمِ عيش في بيوت رخامِ
فقلتَ اعقِروا هَذي اللَّقوحَ فإنها لكم أَو تُنيخوها لقوح غرامِ

فلما أناخُوها تبرَّأْتَ منهم ... وكنتَ نكوصًا عند كل ذمامِ
وآدم قد أخرجْتَه وهو ساكن ... وزوجتُه مِن خير دار مقامِ
وأقسمتَ يا إبليس أنكَ ناصح ... له ولها إقسامَ غير إثامِ
فظلَّا يَخيطان الوراق عليهما ... بأيديهما مِن أكلِ شرِّ طَعامِ

والقصيدة كلها مُتأثِّرة بالقرآن والروح الإسلامية إلى حدٍّ بعيد، وقال:

حلفتُ بمَن أتى كنفَي حِراء ... ومَن وافَى بحجَّته إلالا
ومَن سمَكَ السماءَ له فقامَت ... وسخَّر لابن داود الشمالا
ومن نجَّى من الغمرات نوحًا ... وأرسى في مواضعها الجبالا

وقال:

أرجو الدعاء مِن الذي تلَّ ابنه ... لجبينه ففداه ذو الإنعامِ
إسحق حيث يقول لمَّا هابه ... لأبيه حيث رأى من الأحلامِ
امضِ وصدِّق ما أُمرتَ فإنني ... بالصبر مُحتسبًا لَخيرُ غُلامِ

وقال ليزيد بن عبد الملك:

كُن مثل يوسف لما كاد إخوته ... سلَّ الضغائن حتى ماتَت الحقدُ

وقال من قصيدة يهجو جريرًا:

ولقد ضللتَ أباك تَطلُب دارمًا ... كضَلال مُلتمِسٍ طريق وَبارِ
كالسامريِّ يقول إن حركته ... دعني فليس عليَّ غير إزاري

وقال يذكر تحويل الوليد بن عبد الملك بيعة دمشق عن المسجد:

فُهِّمتَ تحويلها عنهم كما فَهِما ... إذ يَحكُمان لهم في الحرث والغنمِ
داود والملك المَهدي إذ حكَما ... أولادها واجتزاز الصوف بالجلم
فهَّمَك الله تحويلًا لبيعتِهم ... عن مسجدٍ فيه يُتلى طَيِّب الكَلِمِ

وقال في فرار عمر بن هُبيرة من سجن خالد بن عبد الله القسري:

ولما رأيتَ الأرض قد سُدَّ ظهرها ولم ترَ إلا بطنَها لك مخرجًا
دعوتَ الذي ناداه يونس بعدما ثوى في ثلاث مظلمات ففرَّجا

وقال في هجاء آل المهلب:

فصارُوا كمَن قد كان خالَفَ قبلهم ومِن قبلهم عادٌ عصَت وثمودها

وقال:

فلو أن ذرًّا أو أباه رأى التي رأيتُ أبَت عيناه أن تتأخرا
إذًا لرأى مثل الذي ظلَّ رانيًا إلى فرعها داود حتى تحدَّرا
إليها من المحراب وهو على الذي يفصَّلُ فيه كلُّ شيءٍ مسطرًا

ومنها يقول مادحًا يزيد بن عبد الملك:

به دمَّر الله المزون ومَن سعى إليهم كما كان الفراعين دمَّرا
بَنيتَ الذي أعيا سليمان وابنُه وداود والجن الذي كان سَخِرا
فأصبح جسرًا خالدًا ويُدركه إذا دكَّ عن يأجوج ردمًا فنشَّرا
بقوتِه الله الذي هو باعث عبادًا له من خلقه حين نشرَا
عصائب كانت في القبور فبُعثرت وعاد ترابًا خلقُه حين قدَّرا

وقال يمدح سليمان بن عبد الملك:

حملتَ الذي لم تَحمِل الأرضُ والتي عليها فأدَّيتَ الذي أنت حامِلُه
إلى الله مِن حمل الأمانة بعدما أضيعت وغال الدِّين عنَّا غوائلُه

وقال مِن قصيدة يمدح بها الحجاج:

وقائلة لي ما فعلَت إذا التقَت وراءك أبواب المَنايا القواتلِ
فقلتُ لها ما باحتيال ولا يد خرجتُ من الغمى ولا بالحبائل

ولـكـن ربـي ربُّ يـونـس إذ دعـا من الحوت في موجٍ من البحر سائل
دعـا ربـه واللـه أرحـمُ مـن دعـا وأدنـاه مِـن داعٍ دعـا مُـتـضـائـلِ

وقال من قصيدة يمدح سليمان بن عبد الملك ويهجو الحجاج:

جُعلتَ لأهل الأرض عدلًا ورحمةً وبُـرءًا لآثـار الـجـروح الـكَـوالـمِ
كمـا بـعـث اللـه الـنـبـيَّ مـحـمـدًا على فترةٍ والناس مثل البهائمِ
فلما عتا الحجاج حين طغى به غنًى قال إني مُرتقٍ في السلالمِ
فكان كما قال ابن نوحٍ سأرتقي إلى جبلٍ من خشية الماء عاصمِ
رمى الله في جثمانه مثل ما رمى عن القِبلة البيضاء ذات المحارم
جنودًا تسوق الفيل حتى أعادهم هباءً وكانوا مَطرخُميَ الطَّراخمِ
نُصرتَ كنَصرِ البيت إذ ساق فيله إليه عظيم المشركين الأعاجمِ

وقال:

عجبتُ من الآمال والموت دونها وماذا يرى المبعوث حين يقومُ

وقال:

ولو وطئَت سعدٌ ليأجوج ردمها بأقدامها لارفضَّ عنها ردومها

وقال:

أبونا خليل الله وابن خليلِه أبونا أبو المُستخلَفين الأكارم

وقال:

على عهد ابن مريم كان قومي هم الفرع المقدَّم والسناما

وقال:

فلا أُمَّ إلا أُمُّ عيسى علمتُها كأمِّكَ خيرًا أمهاتٍ وأمجدا

وقال:

ورثنا عن خليل الله بيتًا يطيب للصلاة وللطهورِ
هو البيت الذي مِن كل وجهٍ إليه وجوه أصحاب القبور

وقال يرثي الجراح الحكمي:

لقد صبر الجراح حتى مشَت به إلى رحمة الله السيوف الصوارمُ
فأصبح في القوم الذين محمد أخوهم ومَن يلحق بهم فهو سالمُ
جُزوا بالسريرات التي في قلوبهم جزاهم بها مُحصي السرائر عالمُ
إلى الغرفة العُليا رفيق محمد مقيمًا ولا منها هو الدهر رائمُ

وقال:

ولو ضافه الدجال يَلتمس القرى وحلَّ على خبازه بالعَساكر
بعدة يأجوج ومأجوج جُوَّعًا لأشبعهم شهرًا غداء العَذافر

وقال من قصيدة يمدح يزيد بن عبد الملك ويزعم أن أمه حمَلَت به ليلة القدر:

تلقَّتْ به في ليلةٍ كان فضلها على الليل ألفًا من شهورٍ مقدَّرًا

وقال:

فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم كأنهم من ثمود الحِجر أو إرمِ

وقال في معنى الحديث: «أُريتُ جدَّ بني تميم جملًا أحمر، فأولتُه أنهم لا تضرهم عداوة من عاداهم.»

إنَّ تميمًا كل جدٍّ لجدها يذلُّ لفُرَّاس الجُدود كلاكلُه

وقال:

لنا مَسجدا الله الحرامان والهُدى ... وأصبحَتِ الأسماءُ منَّا كبيرها
سوى الله إنَّ الله لا شيء مثله ... له الأمم الأُولى يقوم نُشورها
رمى الناس عن قوس تميمًا فما أرى ... معاداة من عادى تميمًا تضرُّها
ولو أن أمَّ الناس حواء حاربَت ... تميم بن مرٍّ لم تجد من يُجيرها
ونُبِّئتُ أشقى جعفر هاجَ شقوة ... عليها كما أشقى ثمود مُبيرها

قال وهو محبوس:

وإذا حُملتُ إلى الصلاة كأنني ... عبءٌ يميل بعدله المَعدولِ
إني حلفتُ بصارعٍ لابنٍ له ... إسحقَ فوق جبينه المَتلول
ولقد حلفتُ بمُقبِلين إلى مِنًى ... جاءوا عصائب فوق كل سَبيلِ

وقال:

رجال على الإسلام إذ ما تجالَدُوا ... على الدين حتى شاعَ كلَّ مكانِ
وحتى دعا في سور كل مدينة ... مُنادٍ يُنادي فوقها بأذانِ
فيجزي وكيعٌ بالجماعة إذ دعا ... إليها بسيفٍ صارمٍ وسنانِ
جزاءً بأعمال الرجال كما جزى ... ببدرٍ وباليرموك فَيء جنانِ

وقال يهجو جريرًا:

فإنك من هجاء بني نمير ... كأهل النار إذ وجدوا العذابا
رجوا مِن حرِّها أن يَستريحوا ... وقد كان الصديد لهم شرابًا

وقال:

دعوتُ الذي سوَّى السموات أيدُه ... ولَلهُ أدنى من وريدي وألطف
وبيتان بيتُ الله نحن وُلاته ... وبيتُ بأعلى إيلياء مُشرَّفُ

ومنها:

على من وراء الردم لو دُكَّ عنهم لماجوا كما ماجَ الجراد وطوَّفوا

وقال:

حلفتُ برب مكة والمصلى وأعناق الهديِّ مقلَّداتِ
لقد قلدتُ جلف بني كليب قلائد في السوالِفِ باقياتِ
قلائد ليس مِن ذهبٍ ولكن مواسم من جهنم مُنضجات

وقال:

قال الملائكة الذين تخيَّروا والمُصطفَون لدينِه الأخيارُ

وقال:

عرف القَبائل أننا أربابها وأحقها بمناسك التكبير
جعل الخلافة والنبوة ربنا فينا وحرمة بيته المعمورِ
منا النبي محمد يَجلي به عنا العمى بمصدِّق مَأمورِ

وقال:

أنا ابن خندف والحامي حقيقتها قد جعلوا في يميني الشمس والقمرا

وهو مأخوذ من قول النبي عليه السلام لعمه أبي طالب: «يا عمِّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» (سيرة ابن هشام، ج١، ص٨٩).

وجاء رجل إلى الحسن البصري والفرزدق جالس إلى جنبه، فقال: يا أبا سعيد! الرجل يقول لا والله ولم والله في كلامه، قال: لا يريد اليمين، فقال الفرزدق: أوَ ما سمعت ما قلتُ في ذلك؟ قال الحسن: ما كل ما قلتَ سمعوا، فما قلت؟ قال قلتُ:

ولستَ بمأخوذ بلغوٍ تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائمِ

فلم ينشب أن جاء رجل آخر فقال: يا أبا سعيد، نكون في هذه المغازي فنُصيبُ المرأة لها زوج، أفيحل غشيانها ولم يُطلِّقها زوجها؟ فقال الفرزدق: أوَ ما سمعت ما قلتُ في ذلك؟ قال الحسن: ما كل ما قلت سمعوا، فما قلت؟ قال: قلت:

وذاتُ حليلٍ أنكَحَتْنا رماحنا حلالٌ لمَن يَبني بها لم تُطلَّقِ

وقال:

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا
أخاف وراء القبر إن لم يَعافني أشد من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسواق يقود الفرزدقا

وأما تمثيله العربية في فصاحتها وشواردها، وتاريخ العرب في مناقبهم ومثالبهم، حتى قيل: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب.» وقيل: «لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس.» وقال أبو عمرو بن العلاء: «لم أرَ بدويًّا أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير الفرزدق ورؤبة.» فذلك لكثرة مفرداته، وصحَّة تراكيبه، وجزالة أسلوبه، واشتمال شعره على الغريب وأوجه التعابير الفصيحة، ووفرة ما تضمَّنه فخره وهجاؤه ومدحه من أخبار العرب وأيامها ومفاخرها، ومثالب من يهجوهم في الجاهلية والإسلام. خُذ مثلًا لذلك نقيضة من نقائضه مع جرير، تجد فيها: صحة اللغة وفصاحة الأسلوب وجزالة التركيب ورصانة القافية وعراقة العربية مع شيء من الغريب، كما تجد كثيرًا من أخبار العرب في الجاهلية والإسلام، فلو جمع باحث مُفردات الفرزدق التي استعملها في شعره لكادَت تكون مُعجمًا، ولو توفَّر على ترتيب ما فيه من الأخبار والحوادث والأيام والمفاخر والمخازي والعادات والأساطير والخرافات لجمع تاريخًا لحوادث الجاهلية وحياتها الاجتماعية، والشواهد على ذلك أكثر من أن تُذكَر، نَكتفي بإيراد قليل منها، قال (نقائض، ص١٨٩):

وهم على ابن مُزيقياء تنازَلوا والخيل بين عجاجتَيها القسطلُ
وهم الذين على الميل تداركوا نعمًا يُشلُّ إلى الرئيس ويُعكَل
ومُحَرِّقًا صفدوا إليه يمينه بصفاد مقتسرٍ أخوه مكبَّلُ
ملكان يوم بُزاخةٍ قتلوهما وكلاهما تاجٌ عليه مُكلَّل
وهم الذين علوا عمارة ضربةً فوهاءَ فوق شئونه لا تُوصل

وهم إذا اقتسم الأكابر ردهم وافٍ لضبَّة والركاب تُشلَّل
جار إذا غدر اللئام وفى به حسب ودعوة ماجدٍ لا يُخذَل
وعشية الجمل المجلَّل ضاربوا ضربًا شئون فراشِه تتزيَّل

هذه الأبيات الثمانية فيها من الأخبار والحوادث والأيام ما استغرق عشر صفحات كبيرة من كتاب النقائض، ولا سبيل لتلخيصها هنا، ولكن لا بأس بالإشارة إليها؛ فابن مزيقياء قتَله عامر من بني ضبة، ويوم الأميل كان لبَني ضبة على بني شيبان، ومحرَّق: هو ابن الحرث بن مُزيقياء، والملكان هما: محرِّق وأخوه زياد، قُتلا يوم بُزاخة؛ ولهذا اليوم حديث طويل، وعمارة: هو عمارة العبسي، ولَمقتله خبر طويل، والأكابر: شَيبان وعامر وجليحة من بني تيم الله، والجار: يعني بدر بن حمراء الضبي، أجار الأكابر في حديث طويل، ويوم الجمل مشهور.

وقال يُشبِّه وفاء سليمان بن عبد الملك لآل المهلب بوفاء السموءل لامرئ القيس، ووفاء ابن ديهث للحارث بن ظالم:

وفاء أخي تيماء إذ هو مشرف يُناديه مغلولًا فتًى غير جأنبِ
أبوه الذي قال اقتلوه فإنني سأمنع عِرضي أن يُسبَّ به أبي
فإنا وجدنا الغدر أعظم سُبَّةً وأفضح من قتل امرئٍ غير مُذنب
فأدَّى إلى آل امرئ القيس بزَّة وأدراعه معروفة لم تُغيَّب
كما كان أوفى إذ يُنادى ابن ديهث وصرمته كالمَغنم المُتنهبِ
فقام أبو ليلى إليه ابنُ ظالم وكان إذا ما يَسلُلِ السيف يَضربِ

ومن التعابير العربية التي حفظها لنا شعره قوله (نقائض، ص٢٨٣):

أو بين حي أبي نعامة هاربًا أو باللحاق بطيِّئ الأجبال

«حيَّ أبي نعامة»: أي وهو حيٌّ، تقول فعلت ذاك حيَّ فلان، أي وفلانٌ حي، وإذا أردت أن تقف على الأسلوب العربي الصريح بجزالته وفخامته فاسمع قوله:

أحلَّ هُزيم يوم بابل بالقنا نذور نساء مِن تميم فحلَّتِ
فأصبحنَ لا يَشرِينَ نفسًا بنفسه من الناس إنْ عنه المنيةُ زلَّتِ

يكون أمام الخيل أول طاعن ... ويَضرب أُخراها إذا هي ولَّتِ
عشيةَ لا يدري يزيد أينتحي ... على السيف أم يُعطي يدًا حين سُلَّتِ
وأصبح كالشَّقراء تُنحر إن مضت ... وتُضرب ساقاها إذا ما تولَّتِ
لعمري لقد جلَّى هزيمٌ بسيفه ... وجوهًا علَتها غبرةٌ فتجلَّتِ
وقائلة كيف القتال ولو رأت ... هزيمًا لدارَت عينُها واسمدرَّت
وماكرَّ إلا كان أول طاعن ... ولا عاينته الخيل إلا اشمأزَّت

وقوله:

ألم ترَ أنا نحن أفضل منكم ... قديمًا كما خير الجناح قوادمه
وما زال باني العز مِنا وبيتُه ... وفي الناس باني بَيت عز وهادِمه
قديمًا ورثْناه على عهد تبَّع ... طوالًا سَواريه شدادًا دعائمه
وكم مِن أسيرٍ قد فكَكنا ومِن دم ... حمَلْنا إذا ما ضجَّ بالثقل غارمه

ولا محلَّ للاستزادة من إيراد الشواهد على الناحية العربية في شعره.
ورُوح البادية شائعة في شعره، نَشعُر بها مقصودة بالذات وبالواسطة، كقوله:

وإنا أهل بادية ولسنا ... بأهل دراهم حَضَروا القرارا

وأكثر صوره الشعرية، من تَشبيه وتمثيل واستعارة وكناية واستشهاد، مُنتزعٌ من حياة البادية وما فيها من حيوان ونبات وموات ومظاهر للطبيعة، فهناك الآل والسموم والأعلام الطامسة والآثار الدارسة والأطلال، والدِّمن والمياه الأواجن والأخبية والأثافي والنؤي، والسباع والذئاب والأفاعي والضباب والإبل والشاء والظباء والنعام والقَطا والشيح والقيصوم وحنين النيب، وما إلى ذلك مما توحيه البادية، وستجد ذلك جليًّا في كل باب من أبواب شِعره، ولكن لا بأس بإيراد بيت واحد مُعرق في البداوة؛ إذ إن طرفَي التشبيه فيه مُنتزع من البادية، وهو:

فترى الأثافي والرَّماد كأنه ... بَوٌّ عليه رَوائم أظآرُ

والفرزدق على جفاء طبعه له مخيَّلة تفيض بالحياة وتُحسِّن الابتكار والابتداع ووضع الأقاصيص بأسلوبٍ حسن، رُويَ عنه من ذلك حديثان طريفان يَغلب على الظن أنهما مِن وضعه، الأول: حديث يوم دارة جلجل، وما صنع امرؤ القيس مع النساء اللواتي كُنَّ يتبرَّدن في الماء، وهو خبر مشهور رُوي عن الفرزدق، ودلائل الوضع ظاهرة عليه، وآثار الخيال الشعري فيه أوضح من أن يُنبَّه عليها، ولو كانت المَشاهد الخلابة التي ذكرها الفرزدق وقعت لامرئ القيس لما فاته أن يُصورها بشعره على ما عُرف به من الحرص على وصف حوادثه الغرامية. والحديث الثاني: يصور مأساة غرامية انتهت بموت عقيلة بنت الضحاك، من أولاد النعمان بن المنذر حنينًا لابن عمها عمرو، ويموت عمرو حنينًا لها في الساعة التي ماتت فيها، والحديث مذكور في الأغاني (ج٧، ص٥٢).

والفرزدق على أُمِّيَّته واسع الرواية، كثير المحفوظ من شعر العرب وأخبارها، قال أبوه غالب لعليٍّ رضي الله عنه لَمَّا زاره ومعه الفرزدق: «هذا ابني، وقد روَّيته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب، ويوشك أن يكون شاعرًا مجيدًا.» وقال صاحب الأغاني: أنشد الراعي الفرزدق أربع قصائد، فقال له الفرزدق: أُعيدُها عليك، لقد أتى عليَّ زمان لو سمعت بيت شعر وأنا أهوي في بئر ما ذهَب عني. وقال الجاحظ: كان الفرزدق راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم. وقال ابن قتيبة: كان الفرزدق مِعَنًّا مِفَنًّا.

ولم يقف الفرزدق عند حفظ أشعار العرب وأخبارهم، بل حفظ القرآن وروى الحديث النبوي، قال صاحب خزانة الأدب: «روى الفرزدق عن علي عليه السلام أحاديث وعن غيره من الصحابة.» وقال صاحب النجوم الزاهرة (ج١، ص٢٦٨): «روى «الفرزدق» عن علي بن أبي طالب وغيره، وكان يُرسل، وروى عن أبي هريرة وعن جماعة.» فثقافة الفرزدق كما رأيت أعلى ثقافة يبلغها شاعر في ذاك العصر.

ويَجمع الفرزدق إلى خصوبة المخيلة وسعة الرواية كثرة النواحي؛ فشعره سجلُّ حياته ومرآة عصره؛ فحوادثه الخاصة مع أزواجه وأولاده ورواته وأصحابه وخدمه جليلها وحقيرها، وما وقع له من اضطهاد أو حبس أو فرار، وما يراه في سفره من ذئبٍ أو أسد، وأخبار لجوئه إلى القبائل أو الأفراد، مسجلة في شعره حتى لو فتح بابًا في داره. قال وقد جعل لداره بابين:

جعلت لها بابين باب مجاشع وبابًا لُجَيميًّا عزيزًا مرامه

وكذلك الحوادث الهامة، كحوادث ابن الزبير وأخيه مصعب، وثورتي ابن الأشعث وابن المهلب، وأخبار وُلاة العراق وتغييرهم وما إليها، حتى ليصعب على الإنسان أن يحصر أبواب شعره. كل ذلك مع حُسن التصرُّف وسعة المضطرب وصحة التعبير؛ فهو أكثر الشعراء الإسلاميين نواحي. سُئل ابن دأب عن الفرزدق وجرير، فقال: «الفرزدق أشعر عامةً وجرير أشعر خاصةً.» وورد في النجوم الزاهرة (ج١، ص٢٦٨): «كان يُقال: الفرزدق أشعر الناس عامة، وجرير أشعر الناس خاصةً.»

ونفَسُ الفرزدق طويل، وقصائده التي تزيد أبياتها على المائة كثيرة، وله القصائد القِصار، وهو في كِلا القسمين قوي لا يسفُّ ولا يَنزل عن طبقته، وكان يُفضِّل القِصار لأنها أسهل حفظًا وأيسر روايةً، وهو «مشهورٌ بحُسن القِطَع» (العمدة، ج١، ص١٢٤).

والمفاضلة بينه وبين جرير شغلت الناس وقسمَتْهم حزبين، وكانت حديث المجالس وسمر السامِرين، بل حديث الجنود في مصافهم وساعات راحتهم، وفي الأغاني. تنازع في جرير والفرزدق رجلان من عسكر المهلَّب، فارتفعا إليه وسألاه، فقال: لا أقول بينهما شيئًا، ثم دلَّهما على الخوارج، فلما توقَّفَ الجيشان بدر أحد المُتنازعين من الصف إلى عُبيدة بن هلال اليشكري الخارجي فسأله عنهما، ففضَّل جريرًا.

وتعصَّب كل حزبٍ لصاحبه حتى قيل: ما ذُكر الفرزدق وجرير في مجلس واتَّفق أهله على واحدٍ منهما. وحتى جعل بعضهم جائزة لمن يفضل الفرزدق من الشعراء. قال صاحب الأغاني: «بذل محمد بن عمر بن عطارد أربعة آلاف درهم وفرسًا لمن فضل من الشعراء الفرزدق على جرير.» والفرزدق عند العلماء واللُّغويين والخاصة أشعر، وجرير عند جمهرة الشعراء أشعر، على أن الشعراء الذين يؤثرون الجزالة وكثرة النواحي يُفضِّلونه أيضًا كالحطيئة، وناهيك بشهادته، وذلك أن الفرزدق لَمَّا هرب من زياد واستجار بسعيد بن العاص وأنشده قصيدته كان عند سعيد الحطيئة وكعب بن جعيل، فقال الحطيئة: هذا والله الشِّعر، لا ما تعلل به منذ اليوم أيها الأمير. فقال كعب بن جعبل: فضِّله على نفسك ولا تُفضِّله على غيرك، فقال: بلى والله أُفضله على نفسي وعلى غيري، أدركتَ من قبلك وسبقتَ من بعدك. ثم قال له الحطيئة: يا غلام، لئن بقيتَ لتبرزنَّ علينا، أنجدتْ أمك؟ قال: لا، بل أبي. ونُقل عن البحتري أنه كان يُفضِّله؛ قال المرزباني في الموشح: «قال أبو الغوث يحيى ابن البحتري: كان أبي يقول: لا أرى أن أُكلِّم من يُفضِّل جريرًا على الفرزدق ولا أعدُّه من العلماء بالشعر، فقيل له: وكيف وكلامك أشد انتسابًا إلى كلام جرير

منه إلى كلام الفرزدق؟ فقال: كذا يقول مَن لا يعرف الشعر، لعمري إن طبعي بطبع جرير أشبه، ولكن من أين لجرير معاني الفرزدق وحُسن اختراعه؟ جرير يُجيد النسيب، ولا يَتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء: بالقين، وقتْل الزبير، وبأخته جعثن، وامرأته النوار، والفرزدق يهجوه في كل قصيدة بأنواع هجاء يخترعها ويُبدع فيها.»

والفرزدق على طول نفسه وسعة مُضطربه وكثرة فنونه تختلف حالاته في قرض الشعر باختلاف بواعثه، حتى ربما وجد مشقَّة في قرضه واحتال لرياضته. قال الجاحظ: قال الفرزدق: «أنا عند الناس أشعر الناس، وربما مرَّتْ عليَّ ساعة ونزْعُ ضرسٍ أهوَن عليَّ من أن أقول بيتًا واحدًا.»[1] وكان إذا لم يُفتح عليه ركب ناقته وطاف وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخالية. قال له مرة وهو في المدينة رجلٌ من الأنصار: بلغني أنك تقول إنكَ أشعر العرب. قال: وتَزعمه مُضر. فقال الرجل: قد قال حسَّان بن ثابت شعرًا فأردتُ أن أعرضه عليك وأؤجلك فيه سنة، فإن قلتَ مثله فأنت أشعر العرب، وإلا فأنت كذاب مُنتحِل، ثم أنشده:

لنا الجفنات الغُر يلمعنَ بالضحى وأسيافنا يَقطرن من نجدة دمًا

قال الفرزدق: فأتيت منزلي فأقبلت أصعد وأصوب في كل فن مِن الشعر، فكأني مُفحَم لم أقُل شعرًا قط، حتى إذا نادى المُنادي بالفجر رحلت ناقتي ثم أخذت بزمامها فقُدتُ بها حتى أتيت ذبابًا (وهو جبل بالمدينة)، ثم نادَيتُ بأعلى صوتي: أجيبوا أخاكم

[1] قال صاحب الأغاني (ج٢١، ص٨٥): قال سلمة بن عياش: دخلتُ على الفرزدق السجن وهو محبوس، وقد قال قصيدته:

إنَّ الذي قد سمكَ السماء بَنى لنا بيتًا دعائمه أعزُّ وأطولُ

وقد أفحم وأجبل، فقلت له: ألا أُرفدك؟ فقال: وهل ذلك عندك؟ فقلت: نعم، ثم قلت:

بيت زرارة محتبٍ بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نَهشلُ

فاستجاد البيت وغاظَه قولي وأدخله في قصيدته.

أبا لبيني، فجاش صدري كما يجيش المرجل، فعقلتُ ناقتي وتوسَّدتُ ذراعها، فما قمتُ حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتًا.

وهو على صحة لغته وجزالة أسلوبه ورصانة قوافيه وشدة أَسر شِعره وطول باعه في الشعر لم يكن حسن الأراجيز، وما له منها إلا النزر اليسير على حسب ما وصل إلينا منها، وقد يُداخل في كلامه ويُعاظل في تراكيبه ويُقدِّم ويؤخر ويتجوز في استعمال الوحشي والغريب والإقواء وما هو أشبه باللحن لاحتياجه للتأويل والتقدير؛ وذلك لثقته بنفسه واعتماده على سليقته ولقَساوة في طبعه، فإذا قيل له في ذلك قال: قلت لفلان من أصحاب النحو: احتَلْ لذلك، وإذا حاجَّهُ أو عارضه نحوي قال: «عليَّ أن أقول وعليكم أن تَحتجُّوا.» وربما هجا من يُدقِّق عليه. قال الأنباري في طبقات الأدباء (ص٢٢): كان ابن أبي إسحق الحضرمي يردُّ كثيرًا على الفرزدق ويكلمه في شعره، فقال فيه الفرزدق:

فلو كان عبد الله مولى هجوتُه ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له ابن أبي إسحق: ولقد لحنتَ أيضًا في قولك: مولى مواليا، وكان ينبغي أن تقول: مولى موالٍ. وسمعه مرة يُنشد:

وعضَّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مِسحتا أو مجلَّفُ

فقال له ابن أبي إسحق: على أي شيء ترفع أو مجلف؟ قال: على ما يسوءُك وينوءُك. وهجا أيضًا من النحاة عنبسة الفيل تلميذ أبي الأسود الدؤلي فقال:

لقد كان في معدان والفيل زاخرٌ لعنبسة الراوي عليَّ القصائدا

على أن أكثر النُّحاة وأصحاب اللغة كان يُعجبهم هذا النوع العويص من شعر الفرزدق، يُشقِّقون منه المسائل ويُفرعون الأحكام ويتخذونه كالأحاجي، قال كردين: «سَقَطُ الفرزدق شيءٌ يَمتحن الرجال فيه عقولهم حتى يَستخرجوه.» والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله يمدح خال هشام بن عبد الملك:

وأصبح ما في الناس إلا مملكًا أبو أمِّه حيٌّ أبوه يُقاربه

وقوله:

وسيري إذا ما الطومساء تطخطختْ على الركب حتى يَحسَبوا القفَّ واديًا

وقوله:

نهيتُ ابنَ عفرا أن يُعفِّر أمه كعفر السلا إذا عفَّرَتْه ثعالبه
فإن امرءًا يَغتابني لم أطأ له حريمًا ولم تَنهاه عني أقاربه

وقوله:

خليفة أهل الأرض أصبح ضَوءُه به كان يُهدى للهدى كلُّ مُهتدِ

وقوله:

لأم أَتَتْنا بالوليد خليفةً من الشمس لو كان ابنها البدر أنجبُ

وقوله:

هو السيف الذي نصَرَ ابنَ أروى به مروانُ عثمان المصابا

وقوله:

إن المصيبة إبراهيمُ مصرعه هدَّ الجبال وكاد الركن ينفردُ

وقوله:

ما من يدي رجل أحقُّ بما أتى من مكرمات عظائم الأخطارِ
من ساعدينِ يَزيدُ يَقدحُ زنده كفَّاهما، وأشد عقد جوارِ

وقوله:

ولم يكن الحَجَّاج إلا على الذي هو الدين أو فقْد الإمام ليجزعا

وقوله:

أفاطم لو صاحبتِهنَّ عذرتِنا ولم تستطيعي القُلقُلان العشنزرا

وقال:

مُعلنكِسِ الكينِ مجلوم مشافره ذي ساعدَينِ يُسمى دارةَ القمرِ

وقوله:

القاتل القرن والأبطال كالحة والجوع بالشحم يوم القِطقِط الشبمِ

وقوله وقد جعل الفاعل مفعولًا به لأنَّ رويَّ القصيدة مضموم:

أنا المُطعِم المقرور في ليلة الصبا وأجهلُ مَن يَخشى الجهولَ بوائقُه

وقوله:

وقد خبَطَت رحلي عليها مطيَّتي إليكَ ولم تعلق قلوصي بصاحبِ

يريد: إليك خبطت مطيَّتي ورحلي عليها.
وقال وفيه الأقوياء:

ما ضرَّها أن لم يَلدْها ابنُ عاصِم وأن لم يَلدها مِن زرارة معبدُ
ربيبة دياتٍ ثلاثٍ ربَينها يُلقمنها من كل سخنٍ ومُبرَدِ

وقوله:

لو بابي جامع عرضت حاجتنا أنجحت أو ببني العوجاء من قَطَنِ
بنو قبيصة لا تخفى مكارمهم من دون أعراضهم أموالهم جنَنُ

ومثله قوله:

لو أنَّ أشيَمَ لم يَسبِق أسنَّتَنا وأخطأ الباب إذ نيرانُنا تَقِدُ
إذًا لوافق مسعودًا وصاحبه كلاهما خارج الأعفاج والكبدِ

وقوله وقد جزم بعد لو:

لو يعلموا حسب المنيخ إليهم وعلى بيوتهم الطريق اللهجمُ

وقوله وقد خفف أي:

تنظرتُ نصرًا والسماكيم أَيهُما عليَّ من الغيث استهلَّت مواطره

وقوله:

تداركني من هوَّة كان قعرها ثمانين بوعًا للطويل العشنَّقِ

وقوله وفيه التضمين:

ولما دعوتُ ابن المراغة للتي رهنتُ لها ابني أيُّنا للعظايم
أحقُّ أبًا وابنًا وقومًا إذا جرى إلى المجد بالمُستأثرات الجسايم

وقوله وقد أقحم الهاء في «فاضله» ولا موضع لها:

فإن أهجُ كعبًا أو كلابًا فإنهم كلا طرفيهم للنميري فاضله

وقوله وقد أقحم كان:

في حومة غمرت أباك بحورها في الجاهلية كان والإسلام

وقوله:

مُتقلِّدًا لأبيه كانت عنده أرباقَ صاحبِ ثلةٍ وبهامِ

يريد: متقلدًا أرباقَ صاحب ثلة وبهام كانت عندة تلك الأرباق، وهي الحبال.

وقوله:

ولو أن سعدًا أقبلت من بلادها لجاءت بيبرينَ الليالي تَزَحَّفُ

أي: لجاءت يبرينُ بجيش مثل الليالي يملأ كل شيء سوادُه.
وقوله:

إني وإن كانت تميمُ عِمارتي وكنتُ إلى القُدموس منها القُماقمِ

وقوله:

ضغا ضغوة في البحر لما تغطمَطَت عليه أعالى موجه وأسافله

وقوله وقد فصل بين الصفة والموصوف:

هوى الخطفى لما اختطفتُ دماغه كما اختطف البازيُّ الخشاشَ المُقارعُ

وقوله:

إذا قيل أيُّ الناس شرٌّ قبيلةً أشارتْ كليب بالأكفِّ الأصابعُ

رفع الأصابع بأشارتْ، ورفع كليب بمضمر، كأنه قال: هذه كليب.
وقوله:

حرب ومروان جدَّاك اللذا لهما من الروابي عظيمات الجماهيرِ

وكان الفرزدق يهتزُّ للشعر الجيد كثيرًا، رُوي عنه أنه سمع منشدًا ينشد قول لبيد:

وجلا السيوف عن الطلول كأنها زُبُرٌ تجدُّ متونها أقلامها

فخرَّ ساجدًا، فعوتب على ذلك فقال: أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر. ولما حضرته الوفاة جعل يُكرر هذا البيت:

فظلتْ تَعالى باليفاع كأنها رماحٌ نحاها وجهة الريح راكزُ

وكأنه كان يريد أن يختص بإحسان الشعراء، ويرى نفسه أولى به منهم، فيغير على شعراء الجاهلية والإسلام أمواتًا وأحياءً ويسلبهم أحسن ما قالوا غصبًا، كان يقول: «خير السرقة ما لا يجب فيه القطع.» قال صاحب الأغاني: وقف الفرزدق على جميل والناس مجتمعون عليه وهو يُنشد:

ترى الناس ما سِرنا يَسيرُون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناسِ وقَّفوا

فأشرَعَ إليه رأسه من وراء الناس وقال: أنا أحق بهذا البيت منك، قال: أنشدك الله يا أبا فِراس، فمضى الفرزدق وانتحله.

ووقَف على الشمردل وهو يُنشد قصيدة له فمر فيها هذا البيت:

وما بين مَن لم يُعط سمعًا وطاعةً وبين تميم غير حز الغلاصمِ

فقال له: والله يا شمردل لتتركنَّ لي هذا البيت أو لتتركنَّ لي عرضك، فقال: خذه، لا بارك الله لك فيه، فادَّعاه الفرزدق وجعله في إحدى قصائده. ومرَّ الفرزدق بابن ميَّادة وهو يُنشد:

لو أن جميع الناس كانوا بربوةٍ وجئتُ بجدي ظالم وابن ظالمِ
لظلَّت رقابُ الناس خاصعة لنا سجودًا على أقدامنا بالجماجمِ

فقال له: أما والله يا ابن الفارسية لتدعنَّه لي أو لأنبشنَّ أمك من قبرها، فقال له ابن ميادة: خذه، لا بارك الله لك فيه، فانتحل الفرزدق البيتَين ووضع مكان ظالم: دارمًا، فقال: «وجئت بجدي دارم وابن دارم.» وسمع ذا الرمة ينشد قصيدة له، فأعجبه منها أربعة أبيات أولها:

أحين أعاذت بي تميم نساءها وجُردتُ تجريد اليمانيِّ من الغمدِ

فقال لراويته: يا عبيد، اضمُمْها إليك. ورُوي أن أبا عمرو بن العلاء لقيَ الفرزدق فاستنشده بعض شعره فأنشده قول المتلمس:

كم دون مية من مُستعمل قذف ومن فلاة بها تُستودَع العيسُ

فقال له أبو عمرو: أوَ هذا لك يا أبا فِراس؟ فقال: اكتمها، والله لضوالُّ الشعر أحبُّ إليَّ من ضوالِّ الإبل.

والنقاد يُشبِّهون الفرزدق بزهير بن أبي سُلمى من حيث الجزالة وحسن التصرف والتنخُّل، ولظهور القوة على شعره أكثر من الطبع؛ كقوله:

ألمَّا على أطلال سُعدى نُسلِّم دوارس لما استُنطِقَت لم تَكلمِ
وقوفًا بها صَحبي عليَّ وإنما عرفتُ رسوم الدار بعد التوهُّمِ
يقولون لا تَهلك أسًى ولقد بدت لهم عَبرات المُستهامِ المُتيَّمِ

والقصيدة كلها تُشبِه معلقة زهير، على أن الفرزدق أشبه بامرئ القيس من حيث شدَّة الأَسرِ وجفاء الطبع واتجاه الأهواء، ولا سيما الغزل، وقد كان يَروي شعره.

ولقد استقام للفرزدق من الأبيات البارعة التي تجري مجرى الأمثال الجامعة بين شرف المعنى وشرف اللفظ ما لم يَستَقِم لغيره؛ فهو أكثر الشعراء الإسلاميين بيتًا مقلَّدًا، من ذلك قوله:

فيا عجبًا حتى كليب تسبُّني كأن أباها نهشلٌ ومجاشعُ

وقوله:

وكنا إذا الجبَّار صعَّرَ خدَّهُ ضربناه حتى تَستقيمَ الأَخادعُ

وقوله:

وكنتَ كذئب السوء لما رأى دمًا بصاحبه يومًا أحال على الدمِ

وقوله:

تُرجِّي رُبَيع أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا رُبَيعًا كبارها

وقوله:

قوارصُ تأتيني وتحتقرونها وقد يَملأ القَطرُ الإناءَ فيفعمُ

وقوله:

أحلامُنا تَزِن الجبالَ رزانةً وتخالُنا جنًّا إذا ما نَجهلُ

وقوله:

فإن تنجُ مني تَنجُ من ذي عظيمة وإلا فـإنـي لا إخـالُـكَ نـاجـيًـا

وقوله:

ترى كل مظلومٍ إلينا فراره ويَهرُب منا جهده كلُّ ظالمِ

وشعر الفرزدق في شدة الأَسرِ وفخامة التركيب وقوة الرصف وإحكام القافية وجزالة الأسلوب وصحَّته في الذروة العليا؛ كقوله:

تمـيـمٌ إذا تمَّت عـلـيك رأيـتـهـا كلَـيلٍ وبـحـرٍ حـيـن يـلـتـقـيـانِ
فَضَلنا بثنتَين المعاشرَ كلهم بـأعـظـمِ أحـلامٍ لـنـا وجـفـانِ
جبال إذا شدُّوا الحُبى من ورائهم وجـنٌّ إذَا طـارُوا بـكـل عـنـانِ

وقوله:

أرى كـل قـوم وَدَّ أكـرَمُـهُـم أبًـا إذا مـا انتَمى لو كان مِنا أوائلُه
فخرنا فصُدِّقنا على الناس كلِّهم وشرُّ مساعي الناس والفخرِ باطلُه

وقوله:

ألم يكُ جهلًا بعد سبعين حجة تذكُّر أمِّ الفضل والرأسُ أشيبُ؟
وقيلُك هل معروفها راجعٌ لنا وليس لشيء قد تفاوتَّ مطلب؟
على حين ولَّى الدهر إلا أقلُّه وكادت بقايا آخر العيش تذهب
فـإن تُؤذِنِينـا بـالـفـراق فـلسـتُمُ بـأول مَـن يَـنسـى ومـن يـتـجـنَّبُ
ورُبَّ حبيبٍ قد تناسيتُ فقده يَـكـادُ فُـؤادي إثـره يـتـلـهَّـبُ

أخي ثقة في كل أمرٍ يَنوبُني وعند جسيم الأمر لا يَتغيَّبُ
قرعتُ ظنابيبي على الصبر بعدَه فقد جعلَت عنه الجَنائبُ تُصحِبُ[٢]

وقوله:

وكان نُفيْعٌ إذ هَجاني لأُمِّه كباحثة عن مُدية نَستثيرُها
عجوز تُصلي الخمس عاذَت بغالب فلا والذي عاذَت به لا أضيرها
فإني على إشفاقها من مَخافتي وإن عقَّها بي نافع لمُجيرُها

وشعره في جملته يدلُّ على قدرة الشاعر وبُعد نظره وإحاطته بما يَرمي إليه من الأغراض، وسعة مخيَّلته وانفساح مجاله؛ ولذلك كَثُرت فيه الصور، ولكن أكثره غير مُنتزَع من النفس، أو قُل إنه منتزع من طبعٍ جاف؛ لذلك فهو يُعجب ويستدعي الإكبار، ولكنه لا يَمتزج بأجزاء النفس كشِعر المطبوعين، وهذا معنى قولهم: «الفرزدق يَنحَت مِن صخْر.» على أنَّ الباعث الشعري إذا خلص إلى نفسه وهزَّها — وقليلًا ما يَخلُص — صدر عنها ما يُطرب ويُشجي، كأبياته في طلاق النُّوار، وبعض أبياته في رثاء بَنيه، وهي:

إذا ذُكرَتْ أسماؤهم أو دُعوا بها تكادُ حَيازيمي تفرَّى صلابُها
إذا ذكرَتْ عيني الذِين هم لها قذًى هيج منها للبُكاء انسكابُها
هَجَرْنا بيوتًا أن تُزارَ وأهلُها عزيز علينا يا نُوار اجتِنابُها
وما زلتُ أَرمي الحرب حتى تركتُها كسيرَ الجَناح ما تدفُّ عُقابُها

وكقوله في حب بَنيه:

ألا زعمت عِرسي سُويدةُ أنها سريعٌ عليها حفظتي للمعاتبِ
ولولا أُبَيْنُوها الذين أحبُّهم لقد أنكَرتْ مني عنودَ الجنائبِ
ولكنَّهم ريحان قلبي ورحمة من الله أعطاها مليكُ العواقبِ

[٢] الظنبوب: عظم الساق، يُقال قرعت ظنبوبي على الأمر: إذا اعتزمتُ عليه، والجنائب: أراد بها نفسه، وإصحابها: انقيادها وسلوَّها.

وهو على كثرة إحسانه وحُسن تصرُّفه وسعة ميدانه ووفرة ما تناوله من المعاني والمواضيع في شعره يُجيد الفخر كثيرًا، لِما رُكب في طبعه من حب التفاخُر والتعاظُم والتِّيه، ويجيد الهجاء لأنه سلاح يذود به عن دعواه في فخره، ويستعمله في وجه من يهاجمه ويُنكر عليه تلك الدعوى، وكثيرًا ما اتخذه آلة يُرهب بها الناس لأغراضٍ شتَّى. ومدحه يُعرب عن مقدرة عظيمة، ولكنه كثير الغُلُوِّ والمبالغة، ووصفه — على قلة قصائده المخصَّصة للوصف — من أجوَد الشعر، ومزية الوصف شائعة في كثير من شعره. وغزلُه في جملته شهواني فيه مجون وفُجور، ولكنه أصدق أنواع شعره؛ لأنه يُصوِّر نفس الفرزدق كما هي. ورثاؤه قليل لا يُعتدُّ به كما يُعتد بفخرِه وهجائه، وله في الأدب والحكمة أبيات تمثل الطبع العربي المتأثِّر بالإسلام؛ فبعضُها يَجري مجرى المثل، وبعضها فيه زهد وتوبة ونُسُك. وله معانٍ لا تدخل تحت باب من الأبواب المُصطلَح عليها، ذكر فيها حوادث خاصة وعامة تُفيد كثيرًا في تفهُّم سيرته وأخلاقه، كما تدلُّ على مقدرته واتخاذه الشعر أداةً صالحة لتصوير حياته ومُحيطه.

فخره

الفرزدق فخور مختال تيَّاه، يَعتدُّ بنفسه كثيرًا ويذهب بها بعيدًا، يَنسِب لنفسه المناقب الحميدة؛ كالكرم والشجاعة والرفعة، فيَفخر ببذلِه، ويُشبِّه نفسه بالأسد والبحر والحية والبدر والذهب، قال:

قالوا لها احتَسبي جريرًا إنه أودى الهِزَبر به أبو الأشبالِ

وقال:

ذباب طار في لهواتِ ليث كذاكَ الليثُ يَلتهم الذبابا
هزبر يَرفت القصرات رفتًا أبى لعِداتِه إلا اغتصابا

وقال:

وقد مُنيَتْ منِّي كليبٌ بضَيغم ثقيل على الحبلى جرير كلاكله

وقال:

بأيَّةِ زنمتَيك تنال قومي إذا بحري رأيتَ له عبابًا
ترى أمواجه كجِبال لُبنى وطودِ الخَيف إذ ملأ الجنابا
إذا جاشَت ذاره بجنح ليلٍ حسبت عليه حرَّاتٍ ولابا
محيطًا بالجبال له ظلال مع الجرباء قد بلَغ الطبابا[1]

[1] الجرباء: السماء. والطباب: المجرة.

وقال:

فكيف وقد فقأتَ عينَيكَ تَبتغي عنادًا لنابَي حيَّةٍ قد تربَّدا
من الصم تَكفي مرةٌ من لُعابه وما عاد إلا كان في العودِ أَحمدا
ترى ما يمسُّ الأرض منه إذا سرى صدوعًا تفأَّى بالدَّكادك صُلَّدا
عمدتَ إلى بدر السماء ودونه نفانف تَثني الطرف أن يتصعَّدا

وقال:

أنا البدر يُعشي طرف عينَيكَ فالتمس بكفَّيك يا ابن الكلب هل أنت نائلُه؟

وقال:

ودَّ جرير اللؤم لو كان عانيًا ولم يدنُ من زأرِ الأسود الضراغمِ

ويُدلُّ بشاعريته كثيرًا، فيدَّعي أنه ورث فحول الشعراء وجمَعهم في شخصه؛ لذلك فشعره لا يقدر على الإتيان بمثله أحد، قال:

وهَبَ القصائد لي النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيدَ وذو القروح وجرولُ[٢]
وأخو بني قيس وهنَّ قتَلنَه ومهلهلُ الشعراء ذاك الأول[٣]
والأعشيان كلاهما ومرقِّشٌ وأخو قُضاعة قوله يتمثَّلُ[٤]
دفعوا إليَّ كتابهنَّ وراثةً فورثتهنَّ كأنهنَّ الجندل

وقال:

سأَجزيك معروف الذي نلتَني به بكيفِكَ فاسمع شعرَ مَن قد تنخَّلا
قصائد لم يَقدِر زهير ولا ابنُه عليها ولا مَن حوَّلوه المخبَّلا

---

[٢] النوابغ: هم النابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، والنابغة الشيباني؛ وأبو يزيد: هو المخبَّل؛ وذو القروح: امرؤ القيس؛ وجرول: الحُطيئة.

[٣] أخو بني قيس: طرفة.

[٤] الأعشيان: أعشى قيس وأعشى باهلة، وأخو قضاعة: أبو الطمحان القيني.

ولم يَستَطِع نسجُ امرئ القيس مثلها وأعيَتْ مراقيها لبيدًا وجرولا
ونابغتَي قيس بن عيلان والذي أراه المنايا بعضُ ما كان قوَّلا

وأيُّ اعتداد بالنفس أبلغ من قوله وهو يجود بنفسه في الساعة التي يخورُ فيها الجبار ويضرع العزيز:

أَرُوني مَن يقوم لكم مقامي إذا ما الأمر جلَّ عن الخطابِ

وفخره بعشيرته وآبائه أشدُّ كثيرًا من فخره بنفسه، فتميم أعزَّ العرب بأسًا وعددًا، ودارم معدن الكرم، ومجاشع خيرة دارم، وصعصعة من أنصاف الآلهة ردَّ على الموءودات حياتهن:

وجدي الذي منَع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يُوءدِ

وقال:

أنا ابن الذي ردَّ المنيَّة فضلهُ فما حسبٌ دافعتُ عنه بمعورِ

وغالب صاحب النار التي لا تخمد، والذي يُعطي العفاة ولا يسأل من هم، والذي أحيا النفوس بجوده يوم صوأر، والذي فكَّ العناة حيًّا وميتًا:

إذا عجز الأحياء أن يَحملوا دمًا أناخَ إلى أجدادنا كل غارمِ

لذلك فإن الذي سمك السماء، رفَع للفرزدق من هؤلاء الآباء بيتًا يُطاول السماء، والله يفعل ما يشاء:

إنَّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعزُّ وأطوَلُ
بيتًا زرارة مُحتبٍ بفنائه ومجاشُعٌ وأبو الفوارس نهشلُ

وكل من انتسب إلى تميم من المعروفين في الجاهلية والإسلام؛ كحاجب وزرارة وعدس والزبرقان وناجية وعقال ونهشل، يُشيد بذكرهم ويُنوِّه بفضائلهم، وقد حفظ فخر الفرزدق أخبار تميم وأيامهم ومفاخرهم ومناقب أجوادهم وبلاء فرسانهم، وما لهم من عزٍّ وبأس ومنَعَة وكرم في الجاهلية والإسلام. وكما يفتخر الفرزدق بآبائه وأعمامه فإنه يفتخر بأخواله بني ضبة ويذكر مناقبهم. وقد استحوذت خاصة الفخر عليه، حتى لتسمع صداها في جميع شعره، فإذا مدح غيره لا ينسى أن يمدح نفسه، وربما مهَّد بالفخر

للمدح كما يُمهِّد الشعراء بالغزل أو ذكر الطَّلل، فكأنه يتغزل بمكارم آبائه وينسب بنسبه كما يَتغزَّل غيره من الشعراء بحِسان النساء. وإذا رثى جعل موت آبائه تأسّاءً وتعزيةً مهما جلَّ خطب الميت ولو كان ابنه، قال:

يُذكِّرني ابنيَّ السماكانِ موهنًا ... إذا ارتفَعا بين النجوم التَّوائمِ
ومن قبلُ مات الأقرَعان وحاجب ... وعمروٌ ومات المرء قيسُ بن عاصمِ
ومات أبي والمُنذِران كلاهما ... وعمرو بن كلثوم شهابُ الأراقمِ

ولعلَّك تشم رائحة الفخر من قوله في وصف الذئب:

ولو غيرنا نبهتَ تَلتمِس القِرى ... رماكَ بسهمٍ أو شباة سنانِ

وأغرب من ذلك كله أن يرثي جنينًا له حملت به أمه من الفرزدق سفاحًا، وماتت وهي حامل فمات في جوفها، فقال يَرثيه لأنه ابن الفرزدق وسليل دارم:

وغمدِ سلاحٍ قد رُزئتُ فلم أنُحْ ... عليه ولم أبعَثْ عليه البواكيا
وفي جوفه مِن دارمٍ ذو حفيظةٍ ... لو انَّ المنايا أنسأَته لياليا

وخاصة الفخر زادت طبعه جفاءً، واستدعت نفور الخُلَفاء والوُلاة منه. عاتب مرة معاوية بن أبي سفيان لحبسه عطاء عمه الحُتات، وافتخر عليه بقوله:

وكم مِن أبٍ لي يا معاويَ لم يَزل ... أغرَّ يُباري الريح ما ازورَّ جانبه
نمَتْه فروع المالِكين ولم يَكُن ... أبوك الذي مِن عبد شمسٍ يُقاربُه

فوسعُه حلم معاوية على عادته، ولكن زياد بن أبيه حفظها له وتحيَّن له الفُرص حتى اضطهدَه وشرَّده من العراق. واستنشده مرةً سليمان بن عبد الملك وهو يرى أنه سيُنشِده مديحًا له، فأنشده قوله يفتخر:

وركبٍ كأنَّ الريح تطلب عندهم ... لها ترةً من جَذبِها بالعصائبِ
سروا يَركبون الريح وهي تلفُّهم ... إلى شعب الأكوار من كل جانبِ
إذا آنسوا نارًا يقولون ليتها ... وقد خَصرت أيديهمُ نارُ غالبِ

فاغتاظ سليمان وكلح في وجهه. ولقد فُتن الفرزدق بمَناقب عشيرته حتى ليرى أن كل ما يصدر عنها مفخرة وإن كان ليس فيه مفخر، أو قُل إن الكناية به غير مستحسنة، كقوله:

ونحن بنو الفَحل الذي سال بوله بكلِّ بلادٍ لا يَبولُ بها فحلُ

وقوله:

أبي الشيخُ ذو البول الكثير مجاشعٌ نماني وعبد الله عمي ونهشلُ

وشعر الفرزدق في هذا الباب من حرِّ الشعر وخالصه، ومن أحسن ما قال، يَفحل ويجزل، ويقوى ويشتد، ويطول نفسه ويتسع مداه، ويُحسن التصرف ويُجيد التأويل والاعتذار:

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ

ويكون مع جزالته وفخامته منسجمًا مطردًا قليل التعسُّف والاجتلاب، كقوله:

إذا متُّ فابكيني بما أنا أهلُهُ فكلُّ جميلٍ قلتِ فيَّ يُصدَّقُ
وكم قائلٍ ماتَ الفرزدق والنَّدى وقائلةٍ مات النَّدى والفرزدقُ

والأمثلة على إحسانه في هذا الباب كثيرة لا سبيل لاستقصائها؛ منها قوله:

أولئك آبائي فجِئني بمثلهم إذا جمعَتْنا يا جرير المجامعُ
فيا عجبًا حتى كليب تسبُّني كأن أباها نهشلٌ ومجاشع
ولكن هما عمَّاي من آل مالكٍ فأقعِ فقد سُدَّتْ عليك المطالعُ
أَتَعدل أحسابًا لئامًا أدقةً بأحسابنا إني إلى الله راجعُ
وكنا إذا الجبار صعَّر خده ضَربْناه حتى تستقيمَ الأخادعُ

وقوله:

ولو كانت الأحداث يَدفعها امرؤ بعزٍّ لما نالت يدي وعريني

وقوله:

ولو رفع الإله إليه قومًا لَحِقنا بالسماء مع السحابِ

وقوله:

سيَعلم مَن سامى تميمًا إذا هوت قوائمُه في البحر مَن يتخلَّفُ
فسعدٌ جبال العز والبحر مالكٌ فلا حضنٌ يبلى ولا البحرُ ينزفُ

وقوله:

فإن تكُ كلبًا مِن كليب فإنَّني من الدارميِّين الطوال الشَّقاشقِ
هم الداخلون البيت لا تدخلونه على المَلك والحامُون عند الحقائق
ونحن إذا عَدَّتْ مَعَدٌّ قديمها مكان النواصي مِن وجوه السوابق

هجاؤه

لم يقل الفرزدق في هجائه الكثير بيتًا أصدق من قوله:

وما حملت أُمُّ امرئٍ في ضلوعها أعقَّ من الجاني عليها هِجائيا

لقد كان الهجاء في الجاهلية وصدر الإسلام على مرارته بعيدًا عن الفُحش، كالذي نراه في هجاء حسان بن ثابت والحطيئة، فلما نبغ الفرزدق واستحرَّ الهجاء بينه وبين جرير لم يقفا عند حد، أحاطا بما في طريقة الجاهليين والمخضرمين من لذع وتهكُّم وتعريض، وتجاوزاها إلى هتك الأعراض، والإقذاع في السب والإفحاش في الشتيمة، والنَّيل من المحارم. والفرزدق مطبوع على الهجاء، مارسه أكثر من سبعين سنة، بدأ به حياته الشعرية واختَتمها به؛ فلقد قال: «كنت وأنا غلام في أيام عثمان أهجو شُعراء قومي.» واستمرت المهاجاة بينه وبين جرير نحوًا من خمسين سنة حتى أسكته الموت. وطالَما استعمل الهجاء أداة إرهاب يَبزُّ بها أموال الناس؛ فلقد كان له جُعل على منية بنت الصلت الحنفي تُعطيه في كل سنة خمسمائة درهم، وكان الناس يشترون أعراضهم منه، كما فعل رجل من موالي باهلة اسمه حمام. ولولا خوف الفردزق لفضَّل أن يَهجو الناس ويأخذ أموالهم بدلًا من أن يَمدحهم، ويدلُّكَ على ميله للهجاء أن رجلًا اسمه ابن روَّاد حلَّفه أن لا يَهجوه ما عاش، ولم يخطر على باله أن يَشتري منه عرضه بعد مماته، فأمسك عنه الفرزدق حتى مات، فقال يهجوه:

تبكي الخمور وتَبكي كلُّ زانية لا المُحصَنات على قبر ابن روَّاد

وأراد المهاجر بن عبد الله الكلابي أن يُصلح بينه وبين جرير، فأهدى إليه الفرزدق هذه الحلَّة المحبَّرة:

وإني لمُهدٍ للمهاجر حُلةً مُحبَّرةً من بَظرِ أم جريرِ

وقدَّم بين يدَي تلك الهدية هذه التحية:

كان كلابٌ أطول الناس لحية فزاد عليها بظرُ أم المهاجرِ

وقد يمدح الفرزدق من يَرجو نواله أو يخشى بأسه، ويَرثيه أيضًا إذا مات، فإذا انقطع أمله أو زال خوفه هَجاه كما فعل بالحجاج؛ فقد مدحه حيًّا ورثاه ميتًا، فلما بُويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك — وهو عدوُّ الحجاج — هجاه.

والفرزدق في هجائه واسع العطن فسيح المدى كثير الفنون، لا يقف عند حد في مناضلة خصمه، يَذكُر المخازي ويُصرِّح بالمثالب، ويُفحش في النَّيل من الأمهات والأخوات والبنات، ويتهكَّم ويسخر ويَختلِق ويكذب ويذكر العورات، ويخصب خياله فيُحكم التشبيه ويجيد الاستعارة ويعرض على الأنظار صورًا شتى تُمثِّل خساسة المهجو في نفسه وأهله وعشيرته، من غير أن يزعه دين أو يردعه حياء. وهجاؤه لغير جرير أقل إقذاعًا، وأكثر ما قاله في الهجاء موجَّه لجرير؛ لأنه قضى أكثر حياته في مناضلته، فجُمع من أهاجيهما كتاب كبير سُمي بنقائض جرير والفرزدق. وبراعة الفرزدق في هذا الباب وإحسانه — إن صحَّ أن يُسمَّى إحسانًا — ومقدرته مجموعة في النقائض، فتراه يَصِم جريرًا بالخسة والدناءة وأنه راعٍ للغنم، ويَنال من أمه ويشتم أباه، وأن جريرًا على حقارة بيته دَعِيٌّ يسرق من شِعر الفرزدق، وأن أمه فاجرة وأنه مَهتوك العِرض، ويدعوه: بابن المراغة، وأن بني كليب لُؤَماء ونساءهم قبيحات فواجر، وهم من رجال ونساء كالظربى والجعلان، وأن جريرًا جَنى على قومه أعظم جناية لأنه هاج الفرزدق عليهم وعجز عن حمايتهم. وقد يَختلِق مواقف لجرير وأمه، كأن يشكو جريرٌ لأمِّه عجزه عن مصاولة الفرزدق، فتقرعه أمه على تعرُّضه له؛ لأن بني كليب لُؤَماء لا يجد فيهم ما يفتخر به. ويُعيِّر جريرًا بالحمير وأن قومه يتخذونها بدل الخيل، وأنهم غير فرسان بل أصحاب حمير ومعزى، وربما نال من عشيرة جرير أكثر مما يَنال من جرير نفسه؛ فيَذكُر مثالبها ومخازيها والأيام التي كانت عليها في الجاهلية والإسلام. وجميعُ أهاجيه مملوءة بالفخر بنفسه وعشيرته، وقد

يكون الفخر في القصيدة أكثر من الهجاء، فما كان جرير لئيمًا إلا كان الفرزدق كريمًا، وما ذلَّت بنو كليب إلا عزَّتْ بنو مجاشع، وهكذا دواليك في المقابلة بين الأضداد. والأمثلة على ما نقول في هجائه كثيرة جدًّا، منها قوله يهجو الطرمَّاح بن حكيم الطائي:

تسبُّني طيِّئ في أن عجبتُ لها ... لما تعلَّتْ ومَن لا يُعجب العجبُ
وإنما طيِّئ رجلٌ مؤخرةٌ ... عرجاء ليس لها فوتٌ ولا طلبُ
إنْ طيِّئ صدَقَت فاللُّؤم محتدها ... وما لهم مفخر إلا إذا كَذبوا
إنَّ الطرمَّاح يهجوني لأرفعه ... هيهات هيهات غيلَت دُونه القضبُ

وقوله:

ما الباهلي بصادقٍ لك وعده ... ومتى تَعدْكَ الباهلية تَصدق

وقوله:

يُهدي الوعيد ولا يَحوطُ حريمه ... كالكلب يَنبح من وراءِ الدارِ

وقوله:

لو أن قِدرًا بكت من طول ما حُبست ... على الحفوف[1] بكت قدر ابن جبارِ
ما مسَّها دسمٌ مذ فُضَّ معدنها ... ولا رأت بعد عهد القين من نارِ

وقوله:

قبح الإلهُ بني كُليب إنهم ... لا يَغدِرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نُهاق حمارهم ... وتنام أعينهم عن الأوتار

وقوله:

تُريح المخازي جعفرٌ كل ليلةٍ ... عليها وتغدو حين يغدو بُكورها
وما ماتَ زَوجُ الجعفرية ما غدا ... عليها ابنها عند احتلامٍ يَزورها

[1] الحفوف: قلة الدسم.

وقوله:

الـوالـداتُ ومـا لـهـنَّ بـعـولـةٌ والـقـاتـلاتُ لـهـنَّ كل صـغـيـرِ
والمدلجات إذا النُّجوم تغوَّرتْ والتـابـعـاتُ دعاء كل صَـفـيـر
والجعفرية حين يَحتلم ابنها لأبيه في الخَلوات شرٌّ عَشير

وقوله:

يظلُّ إليه الجحشُ ينهق إن علت به الريح مِن عِرفان مَن لا يُزايله

وقوله:

ولو تُرمى بلُؤمِ بني كليب نجومُ الليل ما وضحَتْ لسارِ
ولـو يُـرمـى بـلُـؤمِـهـمُ نـهـار لدنَّس لُؤمهم وضحَ النهارِ
وما يَغدُو عزيز بني كليب لـيَـطـلُـب حـاجـة إلا بـجـارِ

مدحه

مدْح الفرزدق كثير، ويكاد يكون كلُّه في سبيل الاستجداء، وهو نفسه لا يرى غضاضة في التصريح بذلك، فقد يَذكر خلته وخصاصته في قصائده التي مدح بها خلفاء بني أمية، ولا سيما ما قاله في آخر عمره؛ فإنَّ فيه ما هو أشبه بذلِّ المسألة لا يأتلف مع تيهِهِ وتعاظُمه، ولا يكاد الإنسان يصدق أن من قال في أول عمره لمعاوية بن أبي سفيان:

وكم مِن أبٍ لي يا معاويَ لم يزلْ أغرَّ يُباري الريح ما ازورَّ جانبُه
نمته فروع المالِكين ولم يكن أبوك الذي مِن عبد شمس يقاربه

يقول في آخر عمره لهشام بن عبد الملك:

ومِن أين أخشى الفقر بعد الذي الْتقى بكفَّيكَ مِن معروف ما أنا طالبُه؟
فإن ذَنوبًا من سِجالك مالئٌ حِياضي فأفرغ لي ذَنوبًا أنا هبُه

ويقول للوليد بن عبد الملك:

شَكونا إليك الجهد في السنَة التي أقامت على أموالِنا آفة المحلِ
فلم يبقَ مِن مال يَسومُ لأهله ولا مَرتعٌ في حزن أرض ولا سهل

وفي مدح الفرزدق غلو ومبالغة؛ لأنه اتخذه عملًا يعيش من ورائه. مرَّ عمران بن حطَّان على الفرزدق وهو يُنشد والناس حوله، فوقف عليه ثم قال:

أيها المادحُ العبادَ ليُعطى إن لله ما بأيدي العبادِ
فاسألِ الله ما طلبتَ إليهم وارجُ فضل المُقسِّم العوادِ
لا تَقُل في الجواد ما ليس فيه وتُسمِّ البخيل باسمِ الجَوادِ

فقال الفرزدق: لولا أن الله عز وجل شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شرًّا.

ومدحُ الفرزدق لخلفاء بني أمية فيه براعة ومقدرة، يظهر عليه الطابع السياسي جليًّا واضحًا أكثر من كل ما مدَحهم به الشعراء حتى أخصَّ أنصارهم، كالأخطل وجرير وعدي بن الرقاع؛ فهو داعية لهم ولسياستهم، يُجاهر بأنهم أجدر العرب بالمُلك، وأن حقهم في الخلافة لا يختلف فيه اثنان، وأن الله اختارهم لخلافته؛ فهم الهادون المهديُّون، يضربون بسيف رسول الله، وأن أعداءهم كأعدائه يوم بدر، وأنهم ورثوا الخلافة عن عُثمان الذي أخذها بحكم الشورى، وأن الوحي يكاد يَنزل عليهم، وأن الشرف والكرم في عبد شمس وهاشم في الجاهلية والإسلام، من ذلك قوله:

وجَدْنا بني مروان أوتادَ دينِنا ... كما الأرضُ أوتادٌ عليها جبالُها
فأنتم لهذا الدين كالقِبلة التي ... بها إنَّ يضلَّ الناس يُهدى ضلالُها

وقوله في يَزيد بن عبد الملك:

وما وجد الإسلام بعد محمد ... وأصحابه للدِّين مثلك راعيًا
ضربت بسيف كان لاقى محمدٌ ... به أهل بدرٍ عاقِدين النواصيا
سعى الناس مذ سبعين عامًا ليَقلعوا ... بآل أبي العاص الجبال الرواسيا
فما وجدوا للحقِّ أقربَ مِنهمُ ... ولا مثل وادي آل مروان واديًا

وقوله في يزيد أيضًا:

لو لم يُبشِّر به عيسى وبيَّنه ... كنتَ النبيَّ الذي يدعو إلى النورِ
فأنت إذ لم تَكُن إياه صاحبه ... مع الشهيدَين والصدِّيق في السُّورِ
في غُرفِ الجنة العليا التي جُعلت ... لهم هناك بسَعي كان مَشكورِ
صلى صهيبُ ثلاثًا ثم أنزَلها ... على ابن عفَّان ملكًا غير مَقصورِ
وصيةً من أبي حفص لستَّتِهم ... كانوا أحبَّاء مهديٍّ ومأمورِ
مُهاجِرين رأوا عُثمان أقربَهم ... إذ بايَعُوه لها والبيتِ والطُّورِ
فلن تزال لكم واللهُ أثبتها ... فيكم إلى نَفخة الرحمن في الصُّورِ

وقوله في عبد الملك بن مروان:

إذا أتيتَ أمير المؤمنين فقُلْ ... بالنُّصحِ والعِلم قولًا غير مَكذوبِ
أما العراقُ فقد أعطَتكَ طاعتها ... وعادَ يَعمُرُ منها كلُّ تخريب
فالأرض لله ولَّاها خليفتَه ... وصاحبُ الله فيها غير مَغلوبِ
بعد الفساد الذي قد كان قام به ... كذاب مكة مِن مكرٍ وتخريبِ
راموا الخلافة في غَدرٍ فأخطأهم ... منها صدور وفازوا بالعَراقيبِ
والناسُ في فِتنةٍ عمياءَ قد تركَت ... أشرافُهم بين مَقتولٍ ومَحرُوبِ
دعوا ليَستَخلِفَ الرحمنُ خَيرَهمُ ... والله يَسمعُ دعوى كل مكروبِ
فانقضَّ مثل عتيق الطير تَتبعُه ... مساعرُ الحرب مِن مُردٍ ومِن شيبِ
وقد رأى مُصعبٌ في ساطع سبطٍ ... منها سوابق غارات أطانيبِ
فأصبح الله ولَّى الأمرَ خيرَهمُ ... بعد اختلافٍ وصدعٍ غيرِ مَشعُوبِ
تراث عُثمان كانوا الأولياء له ... سربال ملك عليهم غير مَسلُوبِ

وقوله في الوليد بن عبد الملك:

وما زلت أرجو آل مَروان أن أرى ... لهم دولةً والدهر جمٌّ دوائرُه
لدن قُتل المظلوم أن يَطلبوا به ... ومولى دمِ المظلوم منهم وثائرُه
وما لهم لا يُنصَرونَ ومنهم ... خليل النبي المصطفى ومُهاجرُه
ملوك لهم ميراثُ كل مشورة ... وبالله طاوي الأمر منهم وناشرُه

وكان يلقِّب سليمان بن عبد الملك بالمهدي، قال من قصيدة يمدحه بها:

ألا تَشكُرونَ الله إذ فكَّ عنكُمُ ... أداهَم بالمهدي صُمًّا ثِقالها

وقال:

وما قام مذ ماتَ النبيُّ محمد ... وعثمانُ فوق الأرض راعٍ يُعادلُه

فأصبح صلبُ الدين بعد الْتوائِه على الناس بالمهديِّ قُوِّم مائله

وقال في معاوية بن هشام:

ورثوا تراث محمد كانوا به أَولى وكان لهم من الأقسام

وقال في هشام بن عبد الملك:

ولو أُرسل الرُّوح الأمين إلى امرئٍ سوى الأنبياء المصطفَين الأكارمِ
إذًا لأتَت كفَّي هشامٍ رسالةٌ من الله فيها مُنزلات العَواصِمِ

وقال في سليمان بن عبد الملك:

كُنا نُنادي اللهَ نسأله في الصبح والأسحار والعصرِ
أن لا يُميتَكَ أو تكون لنا أنتَ الإمام ووالِيَ الأمرِ
فأجاب دعوتنا وأنقذنا بخلافة المهديِّ من ضرِّ

وقال في الوليد بن عبد الملك:

قضيتَ قضاءً في الخلافة ثابتًا مبينًا فقد أسمعتَ مَن كان ذا عقلِ
فمَن ذا الذي يرجو الخلافة منهم وقد قمتَ فيهم بالبيان وبالفَصلِ؟!
وبيَّنتَ أن لا حق فيها لخاذِلٍ تربَّص في شكٍّ وأشفق من مثُلِ

وقال فيه:

إذا ما رحى زالت بقومٍ ضربتَها على الدِّين حتى يَستقيم ثِفالها
بسيفٍ به لاقى بِبَدرٍ محمدٌ بني النضر في بيضٍ حديثٍ صقالُها
رأيتُ بني مروان إذ جدَّ جدهم علا كلَّ ضوءٍ في السماء هلالُها
أرى الحق قاد الناس من كلِّ جانبٍ إليكم من الآفاق تَلقى رحالها
رأيتُ بني مروان أفلجَ حقُّهم مشورة عثمانِ الشديد مِحالها

وقال:

هل تعلمون بني أميَّة قاتَلوا إلا بسيف نبوَّةٍ لم يُفلَلِ؟!

ولقد مدح ستة من خلفاء بني أمية، هم: عبد الملك بن مروان، وأولاده الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشامًا، وابن أخيه عمر بن عبد العزيز، ولكنه لم يَفِد على خليفة مادحًا قبل سليمان بن عبد الملك. ويزعم بعد ذلك بعض من ترجم للفرزدق أنه كان يتشيَّع.

وإذا مدَح أمراءهم وعمالهم قال إنهم جبال الأرض لولاهم لزُلزلت، ولطَغى بعضُ الناس على بعض، وهم سيوف الله سلَّها على أعدائه. والفرزدق سمح جواد بألقاب المدح وصفات التَّقريظ، ولكنه حاذِقٌ نافذ البصر، يُمدَح الرجل بما يليق أن يُمدح به، وينظر إلى خصائصه فيُضفي عليها ثوبًا من المبالغة؛ كقوله في الحجَّاج:

أمير المؤمنين وقد بَلَونا ... أمورَكَ كلَّها رشدًا صوابًا
تعلم أنَّما الحجاج سيف ... تَحزُّ به الجماجم والرقابا
هو السيف الذي نصَرَ ابنَ أروى ... به مروان عُثمان المصابا
إذا ذكرَت عيونُهم ابنَ أروى ... ويوم الدار أسهلَتِ انسكابًا
عشيةَ يَدخلون بغير إذن ... على مُتوكِّلٍ وفَّى وطابا
رأيتُ الناس قد خافُوكَ حتى ... خشوا بيدَيكَ أو فرَقُوا الحسابا

ومدحُ الفرزدق في جملته من أبواب شِعره الجيدة، ومن أحسنه قوله:

إني رأيتُ يَزيدَ عند شبابه ... لبس التُّقى ومهابة الجبَّارِ
وإذا الرجال رأوا يزيدَ رأيتَهم ... خُضْعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصارِ

وقوله:

أغرُّ كأنَّ البدر فوق جبينه ... متى تَرَهُ البيضُ الدهاقين تَسجدِ

وقوله:

ترى الشُّمَّ الجحاجح من قريش ... إذا ما الأمر في الحدثان عالا
قيامًا يَنظرون إلى سعيدٍ ... كأنهمُ يَرون به هلالًا

وصفه

الفرزدق واسع المخيلة حسن الملاحظة جيد القصص، وهذه المزايا أهم عناصر الوصف في الشاعر. قد تكون قصائده المَصروفة للوصف قليلة؛ لأنَّ وحدة المَوضوع في القصائد العربية لعهد الفرزدق لا تكاد توجد، ولكن خاصة الوصف شائعة في شعره، فهو إذا افتخر أو هجا أو مدح تراه يصطنع صورًا جميلة على سبيل الاستطراد والتفريع، ولقد تناول بشيء من البَسط وصف الجيش والسفن والذئب والنعسان والإبل والبادية وهكذا، فهو يتناول وصف المرئيات أكثر من المعنويات، وهو أيضًا أميَل إلى الأسلوب القصصي في الوصف، وخاصة القصص، تظهر أوضح في غزله، وسيأتي الكلام عليها في فصلٍ خاص. ولو توسَّع فيما كان يتناوله من المعاني على سبيل الاستطراد أو الإلمام أو التشبيه أو التمثيل أو الإشارة، لو توسَّع أو خصَّصَ لخلَّف للأدب العربي صورًا من أروع الصور الشعرية. ومهما يَكُن فإن خاصة الوصف قوية في نفس الفرزدق، قال يصف جيشًا:

وجيش رَبعناه كأن زُهاءَه ... شماريخ طودٍ مُشمخرٍّ مَخارمُه
كثير الحصى جمٌّ الوغى بالغ العِدى ... يُصمُّ السميعَ رِزُّه وهَماهمُه
لهامٍ تظلُّ الطير تُؤخذ وسطه ... تُقاد إلى أرض العدوِّ سواهمه
مطونًا به حتى كأنَّ جياده ... نوًى خَلقتْه بالضُّروسِ عَواجمُه
قبائله شتَّى ويَجمع بينَنا ... من الأمر ما تَلقى إليه خزائمُه
إذا ما غدا من مَنزلٍ سهَّلَت له ... سنابكه صمَّ الصوى ومناسِمُه
إذا ورَدَ الماء الرواءَ تظامأَتْ ... أوائلُه حتى يُماح عيالمُه

دهمنا بهم بكرًا فأصبحَ سَبيُهم تُقَسَّمُ بالأنهابِ فينا مَغانمُه
غزونا به أرض العدو وموَّلت صعاليكُنا أنفالَه ومَقاسمه

وقال يصف سفينة:

وراحلةٍ قد عوَّدوني ركوبها وما كنت ركَّابًا لها حين تَرحلُ
قوائمها أيدي الرجال إذا انتَحتْ وتَحمل مَن فيها قعودًا وتُحملُ
إذا ما تلقَّتْها الأواذيُّ شقَّها لها جؤجؤ لا يَستريحُ وكَلكلُ
إذا رفعوا فيها الشِّراع كأنها قلوص نعامٍ أو ظليمٌ شمردَلُ

وقال يُهدِّد جريرًا بشجة هذه صفتها:

ولولا حياءٌ زدتُ رأسك هَزمةً[1] إذا سُبرتْ ظلت جوانبُها تَغلي
بعيدةُ أطراف الصدوع كأنها ركية لقمان الشبيهة بالدحلِ[2]
إذا نظر الآسون فيها تقلَّبَت حماليقُهم من هول أنيابها الثُّعلُ
إذا ما رأتها الشمس ظلَّ طبيبُها كمَن مات حتى الليل مُختلس العَقلِ
يودُّ لك الأَدنَون لو متَّ قبلَها يَرونَ بها شرًّا عليكَ مِن القَتلِ
ترى في نواحيها الفراخ كأنما جثَمْنَ حوالي أم أربعةٍ طُحل[3]
شر نبثةٌ شمطاء من يرَ ما بها تشبه ولو بين الخماسيِّ والطفل[4]
إذا ما سقَوها السمنَ أقبلَ وجُهَها بعَيني عَجوز من عرينة أو عُكلِ
جُنادِفةٌ سجراءُ تأخُذُ عينها إذا اكتحلَتْ نصف القفيز من الكحل[5]

---

[1] الهزمة: الشق.

[2] ركية لقمان: بئر، والدحل: الحرق العظيم.

[3] الفرخ: الدماغ يُريد أنه قد قطع دماغه، فكأنها فراخٌ جثَمن حول أمهن، وأم الدماغ: الجلدة التي تغشاه.

[4] الشر نبثة: القبيحة، والخماسي: الذي طُوله خمسة أشبار.

[5] الجنادفة: القصيرة، والسجراء: الحمراء (نقائض جرير والفرزدق، ص١٣٠).

وقال يصف البادية والقطا والناقة:

وبيداء تغتال المطيَّ قطعتها ... بركَّاب هول ليس بالعاجز الوغلِ
إذا الأرض سدتها الهواجرُ وارتدت ... مُلاءَ سمومٍ لم يُسدَّين بالغزلِ
وكان الذي يبدو لنا مِن سَرابها ... فضول سُيول البحر من مائه الضحل
ويدعو القَطا فيها القطا فيُجيبَه ... توائم أطفالٍ من السبسَبِ المَحلِ
دوارج أخلفن الشكير[٦] كأنما ... جرى في مآقيها مراودُ من كحل
يُسقَّين بالموماة زُغبًا نواهضًا ... بقايا نطافٍ في حواصلها تغلي
تمجُّ أداوى في أداوى بها استقت ... كما استفرغ الساقي من السَّجلِ بالسَّجلِ
وقد أقطع الخرق البَعيد نياطه ... بمائرة الضبعين وجناء كالهقل
تزيَّدُ في فضل الزمام كأنَّها ... تُحاذِرُ وقعًا من زنابير أو نَحلِ
كأن يدَيها في مراتب سُلَّم ... إذا غاولت أوب الذراعَين بالرِّجلِ
تأوَّهُ من طول الكلال وتشتكي ... تأوُّهَ مفجوعٍ بثكلٍ على ثُكلِ

وقال في أسد:

وردُ السَّراة ترى سودًا ملاغمه ... مجاهر القرن لا يَكتنُّ بالخَمرِ
كأن عينَيه والظلماءُ مسدفةٌ ... على فريسته نارانِ في حجرِ
كأن عطَّارةً باتت تعلُّ له ... بالزعفران ذراعَي مخدر هَصرِ

وقال يُشبه حسناء بدرَّة هذه صفتها:

كدرَّة غوَّاصٍ رمى في مهيبة ... بأجرامِه والنفسُ يُخشى ضميرُها[٧]
موكلةً بالدر خرساء قد بَكى ... إليه من الغُوَّاص منها نذيرُها[٨]

---

[٦] الشكير: الزغب.

[٧] المهيبة: اللجة، والأجرام: البدن كله.

[٨] الموكلة الخرساء: يُريد بها الحية.

فقال أُلاقي الموت أو أُدرِكُ الغنى لنفسيَ والآجال جاءٍ دهورها
ولما رأى ما دونها خاطرَت به على الموت نفسٌ لا يَنام فقيرُها
فأهوى ونابَاها حوالَي يتيمةٍ هي الموت أو دُنيا يُنادي بشيرها
فألقَت بكفَّيه المنيَّة إذ دَنا بعضَّة أنيابٍ سريعٍ سئورها
فحرَّك أعلى حبله بحُشاشةٍ ومن فوقه خضراءُ طامٍ بحورها
فما جاء حتى مجَّ والماء دُونه من النفس ألوانًا عبيطًا نحيرها
إذا ما أرادوا أن يُحيرَ مدوفةً أبى من تقضِّي نفسُه لا يُحيرها[٩]
فلما أروها أمَّه هان وجدُها رجاءَ الغنى لما أضاء مُنيرُها
وظلَّت تغالاها التِّجار ولا ترى لها سيمةً إلا قليلًا كثيرها

وقال في قتيلين:

لعمري قد سلَّتْ حنيفة سلةً سيوفًا أبَت يوم الوغى أن تُعيَّرا
جعلن لمسعود وزينب أُخته رداءً وجلبابًا من الموت أحمرا

وقال في الشيب:

تفاريق شيب في السواد لوامعٌ وما خير ليل ليس فيه نجومُ

انظر أيضًا وصفه حمار الوحش: «أو اخدري فلاة ...» (ديوان الفرزدق، طبعة الصاوي، ص٧٤٦)، ووصف فقيرة بائسة: «وسوداء في أهدام ...» (الديوان، ص٦١٩)، وتصويره النيل والفرات زاخرَين: «ما النيل يضرب بالعبرين ...» (ص٢٨٨)، ووصف الذئب: «وأطلس عسَّالٍ ...» (ص٨٧٠).

[٩] يُحيِّر: يسيغ، والمدوَّفة: الترياق.

غزله

غزل الفرزدق على ما فيه من جفاء وفجاجة أصدق ما قال من الشعر؛ فهو الذي يكشف الغطاء عن طبع الفرزدق الجافي، ونفسه الماجنة الشرهة إلى اللذة. وهو غزلٌ شهواني غير عفيف، فيه فجور ومجون وتعهُّر، وعاطفة الفرزدق فيه خَشِنة، وأمانيه في هواه كذلك، وتعبيره عن أحاسيسه يحتاج كثيرًا من العذوبة والسلاسة، وهو نفسه يُدرك هذه الحاجة ولا يُنكرها، سمع مرة قينةً تغني بشعر جرير، فقال: «ويل ابن المراغة، ما كان أحوجَه مع عفافِه إلى صلابة شعري، وأحوجَني مع شهواتي إلى رقة شعره!» وأيُّ شاهد أدل على جفاء طبعه في الغزل من قوله:

فيا ليتَنا كنا بعيرَين لا نَرِد على منهلٍ إلا نُشلُّ ونُقذَفُ
كلانا به عَرٌّ يُخاف قِرافه على الناس مطليٌّ المساعر أخشَفُ

ونظره إلى المرأة لا يُشبه نظر الشعراء الغزليِّين، قال:

وما أرى، وركوب الخيل يُعجبني كمركَبٍ بين دملوج وخلخالِ

قال الجاحظ: «وهذا الفرزدق وكان مُستهتِرًا بالنساء، وكان زيرَ غوانٍ، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النَّسيب مذكور.»

وكان يعجبه أسلوب عمر بن أبي ربيعة القصصي في الغزل، سمع مرة شعره فقال: «هذا الذي كانت الشعراء تطلبُه فأخطأته وبكت الديار ووقع عليه هذا.» وللفرزدق غزل يقصُّ فيه حوادثه الغرامية، وقد يصف الحوار الذي يدور بين أشخاص تلك الحوادث،

ولا سيما النساء، ولكن لم تُواتِه الرقَّة التي واتَت ابن أبي ربيعة، فقصصه الغزلي أشبه بالقصص الغزلي المروي لامرئ القيس.

نعم، إنَّ خاصة الوصف قوية عند الفرزدق، ولكن وصف الحوادث الغرامية يَستدعي طبعًا رقيقًا ولغة سهلة ونفسًا غَزِلة، كما تجد ذلك في شعر ابن أبي ربيعة ووضَّاح اليمن، أما الفرزدق وطبعه ورأيه في المرأة وجزالة لغتِه على ما علمت فلا تتوقَّع أن يشيع غزله في النفس، أو يعذب قصصه الغرامي في الذوق، وهاك مثلًا على قصصه الغزلي على ما في بعضه من تعهُّر وفجور، قال:

وَجونٍ عليه الجصُّ فيه مريضةٌ ... تطلَّع منه النفس والموت حاضرُه
حليلةُ ذي ألفَينِ شيخ يَرى لها ... كثيرَ الذي يُعطي قليلًا يُحاقرُه
أتيتُ لها من مختلٍ كنتُ أدَّري ... به الوحش ما تُخشي عليَّ عواثِرُه
فما زلتُ حتى أصعَدَتني حبالها ... إليها وليلي قد تخامَصَ آخرُه
فلما اجتمعنا في العلاليِّ بيننا ... ذكيٌّ أتى من أهل دارين تاجرُه
نقعتُ غليل النفسِ إلا لبانةً ... أبت من فؤادي لم تَرُمها ضمائرُه
فلم أرَ منزولا به بعد هجعة ... ألذَّ قِرًى لولا الذي أنا حاذِرُه
أحاذرُ بوَّابين قد وكَّلا بها ... وأسمر من ساجٍ تئطُّ مسامِرُه
فقلت لها كيف النُّزولُ فإنني ... أرى الليل قد ولَّى وصوَّت طائرُه؟
فقالت أقاليد الرتاجين عنده ... وطهمانُ بالأبواب كيف تُساوره
أبالسيف أم كيف التسنِّي لمُوثَق ... عليه رقيب دائب الليل ساهرُه؟
فقلت ابتغي من غير ذاك مِحالةً ... وللأمر هيئاتٌ تُصاب مصادره
لعل الذي أصعدتني أن يردَّني ... إلى الأرض إن لم يَقدر الحين قادره
فجاءت بأسبابٍ طوالٍ وأشرَفَت ... قسيمة ذي زور مَخوف تراتِرُه
أخذتُ بأطراف الحبال وإنما ... على الله من عوص الأمور مَياسِرُه
فقلتُ اقعدا إنَّ القيام مزلةٌ ... وشدَّا معًا بالحبل إني مُخاطرُه
إذا قلتُ قد نلتُ البلاط تذبذَبَت ... حباليَ في نبقٍ مخوفٍ مَخاصرُه
منيف ترى العقبانَ تَقصر دونه ... ودون كُبَيدات السماء مناظرُه
فلما استوت رجلاي في الأرض نادتا ... أحيٌّ يرجَّى أم قتيل نُحاذِرُه؟!
فقلتُ ارفعا الأسباب لا يَشعروا بنا ... ووليتُ في أعجاز ليلٍ أُبادِرُه

هما دلتاني من ثمانين قامةً كما انقضَّ باز أقتم الريش كاسرُه
فأصبحت في القوم الجلوس وأصبحَت مغلقةً دوني عليها دساكِرُه
وباتت كَذَوْذَاةِ الجواري وبعلُها كثيرٌ دواعي بطنه وقراقرُه
ويحسبها باتت حَصانًا وقد جرَت لنا بُرتاها بالذي أنا شاكرُه
فيا ربِّ إن تَغفِر لنا ليلة النقا فكل ذنوبي أنتَ يا ربِّ غافِرُه

وقال:

وبيضٍ كآرام الصَّريم ادَّريتُها بعَيني وقد غار السِّماك وأسحرا
وسود الذُّرى بيض الوجوه كأنَّها دُمى هكر يَنضحْنَ مسكًا وعَنبرا
تَراخى بهنَّ الليل يَتبعْنَ فارِكًا يُضيء سَناها سابريًّا مُزعفَرًا
وقلنَ لها يا هند لا تَبعُدي بنا فإنا نخاف الليل أن يَتقفَّرا
علينا ونخشى الناس أن يَشعُروا بنا فيُصبِح ما نخشى علينا مُشَنَّرا
فجئتُ مِن الجنب الجحيش وقد أرى مخافة من يأتي الرَّباب وشعفرًا
فعاطينَنا الأفواه حتى كأنما شربنا بِراحٍ من أباريق تُستَرا
فلم أدرِ ما برداي حتى إذا انجَلى سواد الدجى عن واضح اللون أشقَرا
تنعَّلنَ أطراف الرياط وواءلتْ مخافة سهل الأرض أن يَتقفَّرا
وقلت لهنَّ احذَونَنا فحذَونَنا شباريق ريطٍ أو رداءً مُحبَّرا
فلم أرَ قومًا يحتذون نعالنا ولا مجلسًا أحلى حديثًا وأنضرا
من المجلس المُستأنِسين كأنهم لدى حرمل البطحاء جِنَّانُ عبقرا

وقال:

نُبِّئتُ عند الشيخ مُهرًا يَبيعُه من آل الحرون لم تُقطَع أباجلُه
فلما أتيتُ الشيخ يَرجُف رأسه وترعد من بعد المشيب مفاصله
قرأتُ عليه سورة الكهف واقفًا ليأخذ فيه الحلم والجهل شامله
وأطرقت إطراق الشُّجاع وشمرتْ عن الساق تشميرًا رقيقًا ذلاذله
فما زلت حتى قال هل أنت نازل؟ فإنك ممن لا تُخاف غوائلُه!

فلما انبرت للغيِّ والشيخُ غافل ... من الخدر تُخفي شخصها وتضائله
فقلت أبرقٌ لاح في مدلهمةٍ ... من الليل أم رئمٌ لطيف أنامِلُه؟
فبتُّ لها في مرصد كنتُ أدَّري ... به الوحش لا تُخشى عليَّ غوائلُه

ومن غزله الشهواني قوله:

ألا ليتنا نِمنا ثمانين حِجَّة ... تنام معي عُريانةً وأنامُها
ضجيعَين مَستورين والأرض تَحتَنا ... يكون طعامي شمُّها والتزامها

وقوله وهو أشبه بتعهُّر امرئ القيس:

وملتفَّةِ الحاذين مرتجَّة الصَّلا ... سنانيةٍ قد بات تَحتي فليقُها
خلوتُ بها في الحَرملِ السَّهلِ تَنتجي ... وأعيبُ ساعاتِ النَّجيِّ طروقها
فما زال تَحتي نصفها قد قسمتُها ... فريقين حتى جاء جون يَسوقها

وقوله:

تقول وساقاها حواليَّ إن ترد ... مقيلًا إلى الجُلَّى تكن أنت أغدرا
أليس كروعٌ فيَّ يشفيك دونه ... وتصرف عني منك ما كنتُ أحذرا؟
فلو قلتَ للأروى على شعفاتها ... كما قلت لي همَّت ضحى أن تحدَّرا

ومن غزله الحسن قوله:

يا أخت ناجية بن سامة إنني ... أخشى عليكِ بنيَّ إن طلبوا دمي
لو كنتِ في كبد السماء فحاولتْ ... كفَّاي مطَّلعًا إليك بسلَّمِ
هل تَذكُرين إذا الركاب مناخةٌ ... برحالها لرواح أهل الموسم؟!
إذ نحن نُخبر بالحواجب بيننا ... ما في النفوس ونحن لم نَتكلَّمِ
ولقد رأيتكِ في المنام ضَجيعتي ... ولثمتُ من شفتيكِ أطيب ملثمِ

وقوله:

منعَ الحياة مِن الرجال وطيبَها حدقٌ تُقلِّبها النساء مراضُ
وكأنَّ أفئدة الرجال إذا رأوا حدقَ النساء لنَبلها أغراضُ

وقوله في الحنين:

بكت ناقتي ليلًا فهاج بكاؤها فؤادًا إلى أهل الوديعة أصورا
وحنَّتْ حنينًا منكر اهيجَّتْ به على ذي هوًى من شوقه ما تنكَّرا
فبتنا قعودًا بين ملتزم الهوى وناهي جُمان العين أن يتحدَّرا
تروم على نُعمان في الفجر ناقتي وإن هي حنَّتْ كنتُ بالشوق أعذرا

رثاؤه

رثاء الفرزدق قليل لقلة الجدوى منه، وهو إذا قيس ببقية أبواب شعره يقع مقصرًا عنها لصلابة عاطفة الفرزدق. وما قاله في هذا الباب عن اضطرار أو خوف ينمُّ عن قوة ومقدرة، كرثائه للحجاج وأخيه وابنه، وما قاله غير مُضطرٍّ الْتَوى عليه بعضه، فجاء صلبًا كزًّا؛ كقوله في موت زوجه حدراء:

يقولون زُرْ حدراء والترب دونها وكيف بشيء وصلُه قد تقطَّعا
ولستُ وإن عزَّتْ عليَّ بزائرٍ ترابًا على مَرموسة قد تَضعْضَعا
وأهونُ مفقود إذا الموت ناله على المرء من أصحابه مَن تقنَّعا

ومناقضة الفرزدق لجرير في رثاء زوجه دليل على الفرق ما بين نظريهما إلى المرأة، والبُعد ما بين طبعيهما، قال جرير يرثي امرأته:

ولقد نظرتُ وما تمتُّع نظرةٍ في اللحد حيث تمكَّن المحفارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجمل مَنظرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

فقال الفرزدق:

تبكي على امرأةٍ وعندَكَ مثلها قعساء ليس لها عليك خمارُ؟
إنَّ الزيارة في الحياة ولا أرى ميتًا إذا دخل القبور يُزارُ
ولقد هممتَ بسوءةٍ وفعلتَها في اللحد حيثُ تمكَّن المحفارُ
ورثَيتَها وفضَحتها في قبرها ما مثل ذلك تفعل الأخيار

ويدل على تخلفه في هذا الباب أنه لما ماتت زوجه النُّوار وكان يحبها لم يُفتَح عليه بما يصح أن يُناح به عليها، فناح عليها النائحات بقصيدة جرير التي رَثى بها امرأته. على أن له في رثاء بعض بنيه شعرًا يدلُّ على أن الشجى خالط نفسه وألانَ عاطفته، فنفَثَ حرقة صادقة تشجي السامع؛ كقوله:

بنيَّ أصابهم قدر المنايا ... فهل منهنَّ مِن أحدٍ مُجيري
ولو كانوا بَني جبل فماتوا ... لأصبح وهو مُختشِع الصُّخور
إذا حنَّتْ نُوار تهيج مني ... حرارة مثل مُلتهِب السعير
حنين الوالهين إذا ذكرنا ... فؤادَينا اللذَين مع القبور

وقوله:

يُذكِّرني ابنيَّ السماكانِ موهنًا ... إذا ارتفعا بين النجوم التوائمِ

وقوله:

إذا ذُكرَتْ أسماؤهم أو دُعوا بها ... تكاد حيازيمي تَفرَّى صلابُها
إذا ذَكرَتْ عيني الذين هم لها ... قذًى هِيجَ منها للبكاء انسكابُها
هجرنا بيوتًا أن تُزار وأهلها ... عزيزٌ علينا يا نُوارُ اجتنابها
وما زلت أرمي الحرب حتى تركتها ... كسيرَ الجناح ما تدفُّ عقابها

ولكن هذا النوع في رثائه غير كثير.
ويُستحسن قوله:

فلو أن ميتًا لا يموتُ لعزة ... على قومه ما ماتَ صاحب ذا القبر

الأدب والحكمة

للفرزدق في الأدب والحكمة مقدار من الأبيات لا بأس به، يَشتمل بعضها على رأيٍ صحيح أو حكمة حسنة أو قول يُتمثَّل به، وهذا الضرب يُمثِّل الرُّوح العربية في أدبها وحكمتها؛ كقوله:

لا يُعجبنَّك دنيا أنت تاركها ... كم نالها مِن أُناسٍ ثم قد ذهبوا
يَفنى أخوك فلن تَلقى له خلفًا ... والمال بعد ذهاب المال يُكتسب

وقوله:

أرى كل حيٍّ ميتًا فمُودِّعًا ... وإن عاش دهرًا لم تَنُبه النوائبُ

وقوله:

سلوت عن الدهر الذي كان معجبًا ... ومثل الذي قد كان من دَهرِنا يُسلي
وأيقنتُ أني لا محالةَ ميتٌ ... فمتَّبعٌ آثار من قد خلا قبلي
وإني الذي لا بدَّ أن سيُصيبه ... حمام المنايا من وفاة ومِن قَتلِ
فما أنا بالباقي ولا الدَّهرُ فاعلَمي ... براضٍ بما قد كان أذهَب مِن عَقلي
ولا مُنصفي يومًا فأُدرك عندَه ... مظالمَه عندي ولا تاركًا أكلي
وأين أخِلَّائي الذين عَهدتُهم ... وكلهم قد كان في غِبطة مثلي
دعتْهم مقادير فأصبحتُ بعدهم ... بقية دهر ليس يُسبَق بالذحل

وقوله:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرًا مثل الشفيع الذي يَأتيك عُريانًا

وقوله:

فكان كعنز السوء قامت بظلفها إلى مُديَةٍ وسط التراب تُثيرها

وقوله:

ألم تَعلموا يا آل طوعة أنما يهيج جليلات الأمور دقيقها

وقوله:

فقد تَلتقي الأسماء في الناس والكُنى كثيرًا، ولكن لا تَلاقى الخلائق

وقوله:

وليس شباب بعد شيب براجعٍ يد الدهر حتى يَرجع الدرَّ حالبُه

وهكذا بقية أبياته المقلَّدة، وقد سبق إيراد أكثرها.

وللفرزدق ضرب آخر فيه زُهد ونسك وتوبة ووعظ وإقرار بالذنب وزجر للنفس، وهذا الضرب يُمثِّل الروح المتأثِّرة بالدين، وهو في كلا الضربَين يُمثل الشاعر الإسلامي في عصر بني أمية، عصر العروبة المتأثِّرة بالإسلام؛ من ذلك قوله:

ألا كلُّ شيء في يد الله بالغُ له أجل عن يومه لا يُحوَّلُ
وإن الذي يغترُّ بالله ضائع ولكن سيُنجي الله من يتوكلُ
تُبيِّن ما يخفى على الناس غيبه ليالٍ وأيامٌ على الناس دُوَّلُ
يَبين لك الشيء الذي أنت جاهل بذلك علَّام به حين تسألُ
ألا كل نفس سوف يأتي وراءها إلى يوم يلقاها الكتاب المؤجلُ

وله قصيدة يعلن فيها توبته ويهجو بها إبليس، منها قوله:

ألم ترني عاهدتُ ربي وإنني ... لبين رتاجٍ قائمٌ ومقامِ
على قسمٍ لا أشتُمُ الدهر مسلمًا ... ولا خارجًا من فِيَّ سوءُ كلام
ألم ترني والشعر أصبح بيننا ... دروءٌ من الإسلام ذات حوام
بهنَّ شفى الرحمن صدري وقد جلا ... عشا بصري منهنَّ ضوء ظلام
فأصبحتُ أسعى في فكاك قلادة ... رهينة أوزار عليَّ عظام
أُحاذر أن أُدعى وحَوضي مُحلِّق ... إذا كان يوم الوِرد يوم خصام
ولم أنتهِ حتى أحاطَت خطيئتي ... ورائي ودقَّتْ للدهور عظامي
أطعتُك يا إبليس سبعين حِجَّة ... فلما انتهى شيبي وتمَّ تمامي
فررتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني ... مُلاقٍ لأيام المنون حمامي
ألا طالما قد بِتُّ يُوضع ناقتي ... أبو الجن إبليس بغير خِطام
يُبشرني أن لن أموت وأنه ... سيُخلدني في جنةٍ وسلامِ
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي ... رضاه ولا يقتادني بزمام
سأجزيك مِن سَوءات ما كنتَ سُقتني ... إليه جروحًا فيك ذات كِلام
تُعيِّرها في النار والنار تلتقي ... عليك بزقُّوم لها وضِرام

وهناك أبيات تجري هذا المجرى سبق إيرادها في فصل تأثُّره بالإسلام.

وللفرزدق معانٍ لا تدخل تحت باب من هذه الأبواب، ولكنها ذات بال؛ لأنها تلقي نورًا على حياة الفرزدق الخاصة وحياة محيطه، نُظمت في حوادث خاصة وعامة، تارةً تكون مستقلة وتارة تكون ضمن قصائد المدح أو الهجاء، كأقواله في اختلافه مع زوجه النوار، ومقاضاته لدى ابن الزبير، وهربه من زياد والتجائه إلى القبائل والأشخاص، وما لقيَه في سفره من وحشٍ وسبع، وما قاله في حبسه وفي عقوق ابنه، وما كان يقوله في توليَة الولاة وعزلهم، كمسلمة بن عبد الملك، وابن هبيرة، وخالد بن عبد الله القسري، وابن المهلَّب، وانتقام خلفهم من سلفهم كما وقع لابن هبيرة من القسري، وكشكواه من جور العمال وجُباتهم وإرهاقهم الرعية بالعسف والشدة، وتسخير الناس بحفر الأنهُر، وكقوله في ثورتي ابن الأشعث وابن المهلب على بني أمية، إلى غير ذلك من الأغراض التي تصور حياة

المحيط الذي كان يعيش فيه الفرزدق، وقد سبق إيراد كثير منها، ونورد الآن قسمًا آخر منها، قال يشكو إلى الوليد بن عبد الملك جور عاملٍ:

أميرَ المؤمنين وأنت تشفي بعدل يديكَ أدواءَ الصُّدورِ
فكيف بعاملٍ يَسعى علينا يُكلِّفنا الدراهم في البدور
وأنَّى بالدراهم وهيَ منا كرافعِ راحتَيهِ إلى العَبورِ
إذا سُقنا الفرائض لم يُردها وصدَّ عن الشُّويهة والبعير
إذا وضَعَ السياط لنا نهارًا أخذنا بالربا سَرَق الحرير[1]
فأدخَلنا جهنم ما أخذنا من الأرباء مِن دُونِ الظُّهورِ[2]
فلو سمعَ الخليفة صوتَ داع يُنادي الله هل لي مِن مُجيرِ
وأصوات النساء مقرَّنات وصبيان لهنَّ على الحُجورِ
إذًا لأجابهنَّ لسانُ داعٍ لدين الله مِغضابٍ نَصورِ

وقال يشكو إلى سليمان بن عبد الملك:

ويُجمِّرون[3] بغَير أُعطية في البرِّ مَن بُعثوا وفي البحرِ
ويُكلِّفون أباعرًا ذهبتْ جيفًا بلين تقادمَ العصر
حتى غَبطنا كل مُحتمل يُمشى بأعظمه إلى القَبر
وتمنَّت الأحياء أنَّهم تحت التراب وجيء بالحَشر
ما أصبحَت أرضُ العراق بها ورق لمُختبط ولا قشرِ

وقال في نهر المبارك الذي حفره خالد بن عبد الله القسري بواسط:

وأهلكتَ مالَ الله في غير حقِّه على نهرِكَ المشئوم غير المباركِ
وتَضرب أقوامًا صحاحًا ظهورهم وتَترُك حق الله في ظهر مالكِ

[1] السَّرَق: الشقاق، واحده سَرَقَة.
[2] يقول: أخذنا الحرام خوفًا على ظهورنا أن تقع عليها السياط.
[3] التجمير: حبس الجيوش في المغازي.

هذه دراسة موجزة للفرزدق شاعر العرب في العصر الأموي، ورأس الشعراء الإسلاميين، لا أدَّعي أنها كاملة ولكن أرجو أن تكون صحيحة.

هنـــداوي